نظرات إسلامية فى الدين والمجتمع والحياة (١)

إلى ولدي العزيز حاتم، فاتحة خير
على طريق الإيمان
والدك
عبد المجيد صبح

العلم والإيمان

تأليف
عبد المجيد حامد صبح



دار الوفاء للطباعة والنشر
شارع البحر ــ أمام كلية الطب
المنصورة ــ ت ٢٧٤٢٣

الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداة وبعد

فهذه الرسالة الوجيزة حلقة من سلسلة أبحاث أقصد بها عرض تصور الفكر الإسلامى للدين والحياة ، وقدرة هذا الفكر على حل مشكلات البشر ، والأخذ بيدهم إلى ما يحقق لهم سعادتهم وعزتهم ، ويوصلهم من أسلم طريق وأيسره — إلى ما ينشدون ، فى حياتهم الفكرية والعملية .

والقرآن الكريم — مصدر هذا الفكر الأول — مائدة حافلة ، وروض أنف ، وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى

النور .

والقرآن الكريم كتاب ذو عطاء عجيب ، لا ينقضى ، ولا ينفد . يعطى منه لطالبيه على مقدار همتهم فى طلبه ، وبصيرتهم فى فهمه ، لا على مقداره هو فى نفسه ! !

فالقرآن العظيم سيب مغدق ، وفيض مغرق ، وبحر لجى ، تعمق أغواره ، وتتناءى شطآنه .

ولست أجد فى الأبحاث النظرية قاطبة موضوعاً أصعب ولا أدق ، ولا أعمق ولا أوسع ، ولا أشد حاجة إلى النظرة الجزئية الفاحصة ، والنظرة الكلية الشاملة ــ من البحث فى القرآن الكريم ، ومحاولة التعرف على أسراره ، الكامنة من وراء ألفاظه !

ولا يعدل هذه البحوث القرآنية ــ عندى ــ فى دقتها وصعوبتها ، وعمقها ، واتساعها ، وحاجتها فى النظرة الفاحصة الشاملة ــ إلا البحوث العملية عن هذا الكون ، ومحاولة التعرف على أسراره ،

وحقائقه ، الكامنة من وراء ظواهره !

فالقرآن والكون عدلان

وإذا كان ما عرفناه من هذا الكون كثيراً فى ذاته ، قليلاً بالنسبة لذات الكون ، فكذلك ما ندركه من القرآن على كثرة ما ندرك ، وشموله ، فإنه بالنسبة لذات القرآن وشل من لج ، وقُل من كُثر ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ ١٠ : ٢٩

ومن ثم كان عطاء القرآن دائماً ، وسيبه فائضاً ، لا تنقضى عجائبه ، ولا تفنى غرائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد !

ومن هنا — أيضاً — كانت قدرة كتّاب الإسلام على تقديم الحلول لكل ما يستجد من مشكلات الحياة ، وكانت حاجتنا فيه موصولة ، وطلبتنا منه دائمة .

وهذه الصفة ، صفة العطاء الدائم فى القرآن

ـــ هى التى كسبت الإسلام صفتى العموم والخلود .
ولسوف يظل الإسلام كذلك ، لا يعجزه جديد ، ولا يبطله علم ، ولا يحد زمانه ما يتسع من خطوات الناس ، الفكرية والعملية !

وقد أردت أن أضع هذه البحوث فى ميزان غيرى ، ليراها بعين غير عين صاحبها وليقوّمها بغير ميزانه ، فأنظر ماذا يرى ، إيماناً منى بأن تحات الفِكَر يولد الحقيقة ، كما يتولد الشرر بين الحجر والحجر .
فكان أن حاضرت ببعضها صفوة من أهلها ، فأطالوا باعى ، وعمروا رباعى .

ثم كان أن عرضت بعضها للنشر ، فنشر شىء منها فى مجلة الفكر الإسلامى بلبنان ، ومجلة رابطة العالم الإسلامى التى تصدر من مكة المكرمة .

وأشهد ـــ وأقيم الشهادة لله ـــ ، ماقصدت إلا خدمة المسلمين ، على قدر جهدى ، وهو جهد المقل ، أداء لأمانة حمّلها الله لكل مسلم رضى بالله ربا ، وبالإسلام

ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، نبياً ورسولا .

والله ولى التوفيق فى أن تحقق غايتها ، وتكون ذخراً عنده لصاحبها .

عبد المجيد حامد صبح

الشهادة العالمية من كلية أصول الدين
العالمية مع إجازة التدريس من كلية اللغة العربية
دبلوم دراسات إسلامية عليا — وزارة التعليم العالى
م . ماجستير فى الدراسات الإسلامية والعربية

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول : الدرس المستفاد

لله ـــ سبحانه ـــ فى الأمم والجماعات ، سنن اجتماعية ، لا تتبدل ولا تتحول ، كتلك السنن الطبيعية التى استنها فى الكون ، كل يجرى بمقدار ، ويتحقق بأسباب .

ومن سننه الاجتماعية ، أن الكفر ، والفسوق ، والعصيان وجحد النعم ، وغمط المنعم ، وسفه الحق ، والغرور بالقوة ، والتكاثر فى الثروة ، والفرح بها ، وتصريفها إلى غير نفع ، وجعلها دُولة بين الأغنياء ، والبخل بحق الفقراء ، وتظالم أفراد المجتمع ، وهضم أقويائهم حقوق ضعفائهم ، وفقدانهم روح الأخوة

الإنسانية الجامعة ، وأخوة الإيمان العاطفة ، والصدّ عن سبيل الله ، وابتغاءها عوجا ، ونسيان أيامه . . . كل أولئك مما يسبب به الله عقاب فاعليه ، من الأمم والجماعات ، بإهلاكها ، أو إذهاب أمنها ، ورخائها ، وتبديلها من بعدهما خوفاً وضنكا ، فتفقد عيشها الرخيّ ، وأمنها الرضيّ .

ومن أروع العبارات الإسلامية فى بيان هذه السنة ، وأخلدها فى المناهج الاجتماعية ، قول نبيّ الإسلام ، ﷺ : « لا قُدِّست أمة لا يُعطى الضعيف فيها حقه غير متعتع » وجاءت بعض روايات هذا الحديث فى قصة طريفة ، تجلّى سموّ الحكم الإسلامى وما اشتمل عليه من مبادىء العدل والمساواة ورعاية الحقوق ، فقد روى عن خولة بنت قيس ، امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، قالت : كان على رسول الله ﷺ وَسْق من تمر ، لرجل من بنى ساعدة فأتاه يقتضيه ، فأمر رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار أن يقضيه فقضاه تمراً دون تمره ، فأبى أن يقبله ، فقال الأنصارى : أترد على رسول الله

ﷺ ؟ قال الرجل : نعم ، ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ ؟ فاكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعه ، ثم قال : صدق ، ومن أحق بالعدل منى ؟ لا قَدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها ، ولا يتعتعه » وفى بعض روايات القصة أن طالب الدين من الرسول اشتد حتى قال للرسول : أحرج عليك إلا قضيتنى ، فانتهره أصحاب الرسول ، فقالوا : ويحك ! تدرى من تكلم ؟ فقال الرجل : إنى أطلب حقى . فقال الرسول ﷺ : هلاّ مع صاحب الحق كنتم ! ؟ ؟ إنه لا قدست أمة . . .[1]

هذا النص القيم ، على قيمة العدالة ، وحفظ الحقوق على أهلها ، وكفالة الأمة لأصحابها ، حتى يأخذوا حقوقهم ممن هى عليهم ، أياً كانت قوتهم ، ومهما كان مركزهم فى مجتمعهم ، وبيان الأثر العام الذى يترتب على إهمال العمل بهذا المبدأ الجليل ، من تفكك مساك الجماعة ، وتحلل رابطتها ، وانفصام عروتها ، ومحق

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ ٣ صـ ٢٧٠

بركتها ــ أقول : هذا المبدأ الذى نص عليه الحديث الشريف ، وجعله القرآن الكريم ، قرين التوحيد ، فى مثل قول الله : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جائتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشيائهم** ﴾ الأعراف : ٨٥ ــ هذا المبدأ من قواعد الإسلام لقيام العمران ، وتوطيد أساس الملك ، ودعم النظام الذى به تستقر الحياة . وبين القرآن أنه كان مع التوحيد ، رسالة رسول من رسل الله ، وأنه قد خلت به سنن الله فى الأقوام من قبل . وبين الرسول ﷺ أن ذلك المبدأ ، من أسس حفظ الأمة . وقوتها ، وأنه يجب على القادر أن يكون مع صاحب الحق ، يساعده ، ويسانده حتى ينال حقه ، ولايتركه يتعتعه القوى المحقوق ، ويدفعه عن حقه فلا يجد الضعيف صاحب الحق إلا من يمالئ القوى لقوته ومركزه . خوفاً أو طمعاً أو جبناً . . . فإن فعلوا كانت العاقبة خسرا على الجماعة كلها ، وهلاكاً لها بأسرها ، وحرمها الله

تقديسه وعونه ، وأذلها ، وأهانها ، ومحق بركتها ، ودبّ إليها داء الانحلال ، ثم لا تجد من ينصرها من دون الله . . .

وقد تغفل الأمة عن سبب ما أصابها ، بسبب جهلها ، وتحاول الخلاص مما هى فيه ، من غير مخلصه ،وتطلبه من غير مطلبه ، وتتسبب له بغير سببه ، كالمؤتمرات ، أو التشريعات . . . وهيهات ثم هيهات ، لما تسعى إليه ، وهى قائمة على آثامها الاجتماعية . فهى من الأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومثلهم كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، أو كمثل المسرج للعمى ، أو الزارع فى السبخ ! ! ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد** ﴾ هود : ١١١ ﴿ **ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ النحل : ﴿ **ولقد جاءهم رسول منهم**

فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ النحل : ١١٢ : ١١٣ .

ولهذه السنة الإلهية ، فى الاجتماع البشرى ، لسنا مع علاّمة الاجتماع ، ابن خلدون على رأيه فى أن للأمم أعماراً كأعمار الأفراد تنتقل فيها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب ، ثم إلى مرحلة الهرم . انتقالاً طبيعياً كانتقال جسم الفرد من مرحلة الطفولة والضعف ، إلى مرحلة الشباب والقوة ، ثم إلى مرحلة الضعف والشيبة[1] . وإنما مرد ذلك إلى سنن الله فى الاجتماع البشرى ، من الأخذ بأسباب القوة : أو الضعف ، كما بين القرآن ، وكما فهمه أتباعه ، قال العباس ، عم الرسول ﷺ إذ توسل به عمر والصحابة بتقديمه للصلاة يستسقون الله ، فكان من دعائه . اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة ، ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ ١٣ : ١١ وهى سنن مطردة فى الأمم ، كاطراد سنن الله فى الكون .

(١) الدكتور حسين مؤنس مجلة العربى العدد ١٤٤ .

غير أنه من رحمة الله بعباده ، أن الأمة إذا أظلتها من عذاب الله ظلة ، فبادرت إلى التوبة ، وأقلعت عن موجبات نقمته ، وأفادت من محنتها ، فأصلحت شأنها ، وقومت عوجها ،وتركت سبل الغى ، واتخذت سبيل الرشد لها سبيلا ، ولم تنس ما ذكّرت به — كشف الله عنها عذابه ، واستوجبت سنة أخرى من سننه ، وعاملها بمقتضى اسم آخر من أسمائه الحسنى ، لأن للعباد ، كما يقول حجة الإسلام الغزالى فى (المقصد الأسنى) حظوظاً من أسمائه ولكل اسم من أسمائه تعالى ، كما يقول ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة)[1] ، أثر فى الخلق والأمر ، فيعاملها بأسماء مغفرته ورحمته . قال تعالى فى قوم يونس : ١٠ : ٩٨ ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾ وقال فى قوم موسى ٧ : ١٦٨ ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** ﴾ وقال فى سورة الأنعام

---

(١) صـ ٣٠٩ .

٤٢ : ٤٥ ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾

فإذا تعلمت الأمة مما أصابها ، وفاءت إلى أمر ربها ، ونهضت من عثارها ، كشف الله عنها ما أصابها ، وصار لها كالدواء المرّ يصحُّ به الجسم العليل .

لعل عتبك محمود عواقبه
وربما صحت الأجسام بالعلل

وانطلاقاً من هذا الدرس الإلهي ، واستفادة من تلك الآيات الربانية ، والعبر القرآنية ، والحكم النبوية ، أخذت أمتنا تصحح مسارها ، وتصلح من أخطائها ، وتقيم بناءها على دعامتين من العلم والإيمان .

والعلم والإيمان ضروريان لرقى حياة الإنسان ، وتحقيق السعادة له على جهة تحقيق الانسجام والتوافق بين مطالبه المادية والروحية .

فالعلم والإيمان يكشف له عن الكثير من أسرار الكون ، ويوضح له قوانينه ، ويسخر له قواه ، ويبلغ به إلى حلول مشكلاته ، ونيل مطالبه . وهو فى الوقت ذاته ، يحقق صفة فطرية للعقل الإنسانى فى تطلعه إلى الكشف عن المجهول ، والبحث عن الحقائق ، واللذة فى بذل الجهد لحل المعضلات ، وتلك البواعث والغايات باقية ببقاء الإنسان .

والإيمان يشارك العلم فى هذه البواعث ، وتلك الغايات ، فكلاهما — بمعناه الصحيح — حاجة مادية روحية ، وكل منهما يدعم الآخر . ويدعو إليه ، ويتعاون معه ، كأنهما جندان يجاهدان فى طريق واحدة ، لغاية واحدة ، العلم يجيب الإنسان عن سؤاله : كيف ؟ والإيمان يجيبه عن سؤاله : لم ؟

ولم يكن العداء بينهما ، إلا فترة تاريخية ، ومرحلة من مراحل نمو القوى الإنسانية المعطلة .

على أن ذلك العداء ، لم يكن فى جوهره نبذاً لفكرة الإيمان وإبقاء لسلطان العلم وحده فى الميدان ، ولكنه كان تفاعلاً ضرورياً لعوامل خارجة عنهما ، لتخليص فكرة الإيمان والدين ، مما علق بها مما ليس من جوهرها الصحيح ويخطىء من يظن يوماً أن العلم ورجالاته ينبذون « الإيمان » ويرفضون الأديان ، بل هم فى القديم والحديث ، يقرّون ، مع المتدينين ، ويزيدون عليهم ، فى طرق الاستدلال ، بما يكشف لهم العلم عنه من أسرار وعجائب ، تغذى الإحساس الدينى ، وتكون آياتٍ دالات على خالق مدبر ، وشواهد قائمات ، تؤدى عنه الحجة ، وتُعْرِب عنه بالربوبية ، وتوصل إلى القلوب من معرفته ، ما يؤنسها من وحشة الفكر ورجم الظنون .

قال الفيلسوف الألمانى « جنيزلر » فى كتابه « تاريخ الاعتقاد » : الدين مخلد مثل خلود الإحساس الذى

ينتجه . وقال الفيلسوف الفرنسى « رينان » فى كتابه « تاريخ الأديان » : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعده ملاذ الحياة ونعيمها . . ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآباد ، حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى ، الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية . (١)

وإذا كان هذان الفيلسوفان ، قد آمنا بذلك ، فى أيام لم يبلغ العلم فيها مبلغه فى هذه الأيام ، فقد قال بقولهما ، وآمن فوق إيمانهما من رجالات العلم اليوم من علموا الكثير من أسرار الفضاء ، ودعوا إلى أكثر مما دعوا إليه : حدث أن تقدم « جون كلوفر » إلى نخبة من العلماء ، فى مختلف التخصصات ، بالسؤال التالى : هل تعتقد فى وجود الله ؟ وكيف دلتك دراستك وبحوثك عليه ؟

وكان ثمرة إجاباتهم عن هذا السؤال ، الكتاب الذى

(١) محمد فريد وجدى : المدنية والإسلام ص ٣١ ، ٣٢ .

ترجمه إلى العربية الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان بعنوان « الله يتجلى فى عصر العلم » .

ولما كتب العالم الإنجليزى Ju Lian . H. كتاباً سماه (Man Stands alone) رد عليه العالم الأكاديمى الأمريكى « د . كريس موريسون » بكتاب سماه : (Man does not Stand alone) والذى ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكى بعنوان : « العلم يدعوا إلى الإيمان » .

إذن ، عندما ندعوا أمتنا إلى إقامة دولتها على العلم والإيمان إنما تدعوا إلى تأسيس البناء الإنسانى على دعائم العقل الحر ، والفطرة السليمة ، لينهض طائرها بجناحين من قوة المادة ، وقوة الروح ، وهما شقيقان جمعت بينهما أواصر كثيرة من الفكرة والفطرة ، والمادة والدين . وقد علمتنا المحن والنكسات التى مرت بنا ، ضرورة الأخذ بالعلم لنساوق الزمن ، وبالإيمان ليقوّم السلوك ، ونساوق الفطرة . لقد مرت بنا محن قاسية يجب أن تدرس ، وأن تدرس بعمق ، وأن نتفهمها ، أسباباً

ونتائج ، بأناة ، وأن نأخذ عبرها بكل شجاعة وروية ، لنخرج منها بدرس نافع ، يبصر بخطأ الماضى ، وطريق الحاضر ، وأمل المستقبل . وما يعيب الرجال أن يهزموا عن قلة ، أو عن كثرة ، إنما العيب فى أن يهزموا عن جهل ، وعن خلق . وهنا ينكشف الداء ، فيمكن الدواء .

إن السلاح الحديث لا يجدى ، إذا كان من ورائه أشباه رجال ، وقتهم مقتول بين الترف « والقرف » وأملهم محصور فى المرأة والخمرة ، وغايتهم فى « الفِلاّ » الفارعة ، والعربة الفارهة ، وبأسهم ليس على أعداء وطنهم ، بل على إخوانهم فى الوطن . . . وأمثال هؤلاء ليسوا بركن يمال بهم على عدو ، ولا زوافر عز يفتقر إليهم ، ولا تنهض بهم أمة ، ولا تقوم على همتهم دولة ، ولا يدرك بهم ثأر ، ولا يحمى بهم ذمار ، ولا تطهر بهم ديار ، ولا تصدق برأيهم مشورة ، وما هم بأمل يرتجى ، ومرام مطلوب . . . إن المصيبة فى الرجال ،

أوجع من المصيبة فى الآمال ، والعلم ، والإيمان يخلقان الرجال على أساس من الكفاية والثقة معاً ، فلا نشتكى من فجور القوى ، ولا من ضعف التقى ، وبالعلم والإيمان ، وبهما وحدهما ، يعلو الحق ، ويسفل كعب الزور ، وفى أرضهما ينبت الأبطال ويزكو الشجعان ، .وتسلم الأمانة لمن يحميها ويصونها ، وتعطى القوس باريها ، و ﴿ **إنّ خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾

وهل يُنبت الخطّىَّ إلا وشيجه
وتغرس إلا فى منابتها النخل؟!

إن الإصلاح عندما يبدأ من الإنسان ، ينتهى إلى كل شيء بالصلاح ، وعندما يتخطى الإنسان إلى « الأشياء » ينتهى كل شيء إلى فساد !

وعلينا ألا نعجل فى هذه التربية والبناء ، ونتعجل الجنى ، فتعلية البناء بسرعة ، تعرضه للانهيار .

وديارهم بالرمل قد درست
وكذاك ما يبنى على الرمل

الفصل الثانى : العلم والإيمان

١ ــ منزلة العلم فى الإسلام

لست أعلم ديناً من الأديان ، ولا مذهباً من مذاهب الناس ، حفى بالعلم ، وحض عليه ، وبالغ فى رفع منزلته ، وأبعد مداه ، وجعله سبب الفلاح فى الآخرة ، والنجاح فى الدنيا كحفاوة الإسلام به :

١ ــ إذا كان الإسلام قد فاضل بين الناس عموماً بالإيمان والعمل ، فإنه قد فاضل بين المؤمنين بالعلم والجهاد ، وجعلهما معاً سياجاً لحماية المجتمع ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** . . . ﴾ التوبة ١٢٢ . والجهاد فى غايته ، مجاهدة للجهل والجاهلين ﴿ . . **ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ التوبة ٦ ﴿ . . **ذلك بأنهم قوم**

لا يفقهون ﴾ الحشر ٢٣ ، فعاد التفضيل بين المؤمنين إلى العلم والمجاهدين فى سبيله ، فبه يرفع الله المؤمنين درجات ﴿ . . . **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ المجادلة : ١١ لا بمعنى تسوية المؤمن والعالم فى الرفعة ، هذا بسبب علمه ، وذاك بسبب إيمانه ، يستويان بسبب الإيمان والعلم ، بل بمعنى : يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم ، يدل لذلك نفى القرآن التسوية بين من يعلم ومن لا يعلم . كما يدل لذلك تطبيقات من أنزل عليهم القرآن ، ففى صحيح مسلم ، فى فضائل القرآن ، عن نافع الخزاعى ، وكان عامل عمر على مكة ، أنه لقيه بعسفان[1] ، فقال له : من استخلفت ؟ فقال : استخلفت ابن أبزى ، مولى لنا ، فقال عمر : استخلفت مولى ؟ ! قال : إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، فقال عمر : أما إن نبيكم قد قال : إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين .

---

(١) : قرية بين مكة والمدينة .

٢ ــ ومما هو واضح الدلالة على فضل العلم قوله تعالى ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾ لأن الله تعالى لم يأمر نبيه بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم ، لذلك كان الرسول يدعوا ويقول : اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما .

٣ ــ لقد بلغ من حفاوة الإسلام بالعلم أن جعله سبباً للإيمان بالله ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ التوبة : ٦ .

٤ ــ وجعله وسيلة الإقرار بوحدانيته ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم** ﴾ آل عمران : ١٨ استشهد بأولى العلم دون غيرهم من البشر ، على أجلّ مشهود عليه ، وهو التوحيد ، وقرن شهادتهم بشهادته ، وشهادة الملائكة .

٥ ــ وجعله طريق إدراك أسراره فى الكون وما حوى ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء**

كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ﴾ العنكبوت : ٤١ — ٤٣ قصر درجة الإدراك العليا لأمثاله على العلماء ، وفى القرآن نيّف وأربعون مثلاً شملت الكثير مما حوى الكون .

٦ — وجعل العلم سبباً للخشية من الله ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ فاطر : ٢٨ وفى هذه الآية قصر الخشية على العلماء ، وفى آية أخرى جعل الجنة والرضوان جزاء لمن خشيه ﴿ **جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه** ﴾ (البينة) فدل بمجموع النصين على أن هذا الجزاء للعلماء خاصة .

٧ — والإسلام اعتبر العامل الحقيقى فى الصد عنه هو الجهل الذى حَطَّ بكلكله على الصدور ، فران على

القلوب ، وما يتفرع عن الجهل من الشبهات ، والشهوات ، لذلك : أكثر كتابه من تنبيه أهله على أن علة استعصاء الناس عن قبول الحق ، الذى يفضون به إليهم ، هو ما ران على قلوبهم ، وعقولهم ، بسبب جهلهم ، فقال ، وكرر ما قال ، ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ لذلك أعاذ الله أنبياءه من الجهل ، ووعظهم بألا يكونوا من أهله فقال لنبيه محمد ﷺ ﴿ **فلا تكونن من الجاهلين** ﴾ الأنعام : ٣٥ وقال كليمه موسى ﴿ **أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ البقرة : ٦٧ وقال لنبيه نوح ﴿ **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ هود :

هذا ، وأمثاله هو الذى ملأ المسلمين علماً بأن واجبهم الأول هو حمل الدعوة إلى الناس عن طريق نور العلم ، لا عن طريق نار السيف ، فإن السيف لا يفتح القلوب ، وإنما يخضع الرقاب ، والإسلام دينٌ جوهر عقيدته ، خضوع الباطن أولاً .

٨ ــ وكما جعل الإسلام العلم وسيلة الإيمان ، جعله شرطاً فى صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به . فهو متقدم عليهما ، لأنه مصحح للنية ، المصححة للعمل ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** ﴾ محمد : ١٩ قال البخارى : بدأ بالعلم ، حيث قال فاعلم ، ثم أمره بالاستغفار ، وهو من أعمال الإيمان .

٩ ــ وإن القرآن بالغ بك العجب العجاب ، حين يوضح لك اعتباره لأثر العلم ، لا فى الإنسان فحسب ، بل وفى الحيوان ، ذلك أنه جعل صيد الكلب الجاهل مَيْتة محرمة ، وأباح صيد الكلب المعلم ، فمن شرف العلم أنه لايباح إلا صيد الكلب العالم بالصيد ، أما الكلب الجاهل ، فلا يحل أكل صيده ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات . وما علمتم من الجوارح مكلبين ، تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم** ﴾ المائدة : ٤ ولولا مزية العلم والتعليم ، وشرفهما ، كان صيد الكلب المعلم وغيره سواء .

١٠ ــ العلم قوام الحياة الدنيا : كما جعل الإسلام العلم سبب الإيمان ، جعل الحياة الكريمة ، والقدرة على العيش فى الأرض ، وعمارتها ، والكشف عن أسرارها ، وبلوغ القوة فيها مبلغاً فوق مبلغ القوى الخفية ــ بالعلم . أفاد القرآن ذلك فى قصتين بالغتى الحكمة ، عندما أخبر أن الله أعلم الملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة يعمرها ، وبدا هذا للملائكة غريباً ، أن يستخلف الله من فى طبعه شىء من الإفساد ، وسفك الدماء ، ولا يستخلف من طبعه العبادة والتسبيح بحمد الله ، والتقديس له ، ظانين أن هذا التبتل يؤهلهم لهذه الخلافة . فبين الله لهم ، فيما يحكيه القرآن ، كتاب الإسلام ، أن ذلك الذى استخلفه الله ، قد عرف من العلم بالأشياء الكونية ما لم تعرف الملائكة ، فاستحق بهذا العلم ، شرف الاستخلاف ، ولم يكن ذلك الذى علمه ، علم دين وذكر وتسبيح ، إنما كان علماً « بالأشياء » كلها ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ البقرة : ٣١ وفى حديث نبى الإسلام « فضل

العلم خير من فضل العبادة » .

قال حكيم الإسلام جمال الدين الأفغانى[1] : إن الله تعالى أفهم الملائكة أنكم علمتم ما فى خليفتى فى الأرض وهو الإنسان ، من الاستعداد لعمل الفساد ، وسفك الدماء ، وجهلتم ما أعددته لصونه وصرفه عن الإتيان بالنقيصتين المذكورتين ، ألا وهو العلم ، وأنه بذلك العلم يصان الإنسان ، وذلك الصون ، حصره فى العلم ، العلم الذى به ينتهى الإنسان عن الفساد فى الأرض وسفك الدماء .

والآن أجيئكم من سبأ بنبأ : فى قصة سليمان والهدهد ، من سورة النمل ، إشارة دقيقة جداً ، وهى : عندما أراد سليمان استحضار عرش بلقيس ، استعرض ما عنده من ذلك ﴿ **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ فرأى سليمان ذلك بطيئاً ،

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى . اختيار الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل ص ٧٠ .

فلم يرق له فتقدم عند ذلك غيره ﴿ **وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾

فعلّمنا القرآن من تلك الإشارة ، أو الصراحة ، أن واسطة نقل « الأشياء » بسرعة لا يتخيلها وهم ، كانت علماً مدوناً بكتاب ، وله أرباب ، ذوو رسوخ فيه ، وتمكن ، وقدرة عليه .

* * *

٢

مدلول العلم فى الإسلام

لذلك لم يكن مدلول العلم ، فى الإسلام ، قاصراً على العلم الدينى ، بل إنه يتسع فيشتمل على كل المعارف الدينية والدنيوية ، يدل لذلك أن الإسلام قد جعل العلم بالله ، وصفاته وأفعاله ، وهو أعلى المعارف ، وأرقى ما يصل إليه الإنسان . . . عن طريقين : عن طريق العلم بالوحى الذى بعث به الأنبياء ، وهو المعبر عنه « بالأمر » وعن طريق العلم بالكون وأسراره

ومسخراته ، وهو المعبر عنه « بالخلق » ﴿ **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما** ﴾ الطلاق : ١٧ فدل على أن علم الناس بربهم وصفاته وأفعاله غايةٌ وسيلتها العلم بخلق السموات والأرض ، والعلم بما يتنزل بينهما من الوحى .

وكثيراً ما يفرد القرآن الحديث عن العلم بالله ، بوسيلة العلم « بالخلق » ثم يجعل ذلك سبباً لامتثال « الأمر » وتصديقه ، والإيمان به فهو يذكر خلق الله الكون وما حوى من الشمس والقمر والأبراج والأفلاك والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح وسوقها والأمطار ونزولها ، ويضرب الأمثال والحكم للناس بالبقرة ، والنحل ، والنمل ، والذباب ، والعنكبوت ، ثم يعقب على بعضها بقوله ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ ﴿ **خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ العنكبوت : ٤٤ ثم طلب امتثال « الأمر » فى الآية ٤٥

بعد ذكر الخلق بقوله ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ﴾ ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور ﴾ فاطر : ٢٨ ثم بعد بيان اختصاص هؤلاء الذين علموا هذه الظواهر الكونية ــ بخشية الله خالقها ، بعد ذلك يعقب بوصفهم بامتثال الأمر فى الآية ٢٩ ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾

ولهذا ، لم يوصد الإسلام باب العلم ، ولم يقف به عند حد معين ، لزمان معين ، ولم يحدد للعلم نظريات تعتبر وحياً لا يجوز البعد عنه ، بل فتح آفاق التجدد ، والبحث ، وحث على طلب المزيد ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ وأخبر بأنه سيوجد ما لا علم لهم به

﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ وحذر من الاغترار مما حصّل من علم فيحول ذلك بينهم وبين طلب المزيد ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ وكان هذا القول تعقيباً على سؤالهم عن الروح وهى من أسرار الله فى الخلق ، وليست من قبيل « الأوامر » الدينية .

بمثل هذا التوجيه حارب الإسلام الجمود العلمى ﴿ **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾ كما حارب الجمود العقلى ، وهو آفة العلم ﴿ **أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ ﴿ **أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** ﴾

وكان الرسول ﷺ يضرب لهم الأمثلة على علم التجربة ، ويضرب لهم الأمثلة بما فى الكون من أشياء ، كما جاء فى صحيح البخارى ، فى كتاب العلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى ، قال عبد الله : ووقع فى

نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله . قال : هى النخلة .

وكما جاء فى صحيح مسلم فى حديث تلقيح النخل[1] فإنه لما سمع أصواتهم فى النخل يؤبرونها قال : ما هذا ؟ فأخبروه بأنهم يلقحونها ، فقال : ما أظن يغنى ذلك شيئاً ، فتركوه ، فجاء شيصاً ، فقال : إنما أخبرتكم عن ظنى ، وأنتم أعلم بأمر دنياكم ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به .

قال ابن القيم[2] : وهذا الحديث من أدلة نبوته وأعلامها ، فإن من خفى عليه مثل هذا من أمور الدنيا ، وما أجرى الله به عادته فيها ، ثم جاء بما جاء به ، من العلوم التى لا يمكن للبشر أن يطلعوا عليها البتة إلا بوحى ، وأخبر عما كان وما يكون وما هو كائن ، من لدن خلق العالم ، إلى أن استقر أهل الجنة فى الجنة ،

(١) مسلم بشرح النووى جـ ١٥ صـ ١١٦ .
(٢) مفتاح دار السعادة صـ ٦١٧ .

وأهل النار فى النار ، وعن غيب السموات والأرض ، وعن كل سبب جليل أو دقيق ، مما تنال به سعادة الدنيا والآخرة ، وعن كل ما يحقق شقوتها ، وعن مصالح الدنيا والآخرة ، وأسبابها مع كون معرفتهم بالدنيا أكثر من معرفته . . . لا يكون ما جاء به إلا وحيا ! ! إهـ

أقول : وعندى أن هذا الحديث له دلالة إسلامية أخرى ، هى القصد الأول منه :

١ ـ الاعتداد بالتجربة ، والاستفادة منها فى عمارة الأرض وخير الناس ، وليس من شك فى أن إجراء التجارب ، وملاحظة نتائجها ، كانت ذات أثر فى تقدم العلوم ، ومعرفة الكثير من أسرار الكون ، وسنن الله فيه . وقد أراد الرسول ـ فى ظنى ـ أن يعلم الناس بمثال عملى فوائد التجربة والملاحظة ، حثا لهم عليها ، ودفعاً لهم إلى محاولة استكشاف المجهول من سنن الكون عن طريقها .

٢ ـ وأنه لا ضير على المجرب عندما يخطىء ، ولا لوم عليه إذا كانت النتيجة على غير ظنه .

٣ — وأن الإسلام لا يقف مانعاً دون هذه الاستفادة ، بل إنه يطلق لهم فيها زمام السباق ، ويجعلهم بها أعلم ، بما يكون لهم من تجاريب ، تكشف لهم عن خفايا لا يعلمها غيرهم ، ممن ليست له هذه التجارب ، ولو كان نبياً مرسلا ، أو ملكاً مقرباً ! !

وما أشبه دلالة هذا الحديث بالمحاورة بين الله والملائكة حول جعل خليفة فى الأرض يعمرها بعلمه الذى علمه الله إياه ، من دون الملائكة المقربين ، الذين لم يجمعوا هذا العلم إلى إيمانهم وتسبيحهم بحمد الله ، والتقديس له . فكما أن هذا الحديث ، فيما يرى ابن القيم ، آية من آيات الرسول على نبوته ، هو — عندى — آية ، قولية وفعلية ، على أن دين الإسلام للدين والدنيا ، يقصد إلى عمارتها ، وإنضاجها ، بأفكار الإنسان ، وتجاربه ، وكيسه ، والدين فى ذلك ، هاديه ، ومرشده ، لاحاجز له ، ولا معوق .

٣ ــ كيف فهم أسلافنا مدلول العلم ؟

وهذا الذى ذكرناه من مدلول العلم فى الإسلام ، بعمومه ، واشتماله على جميع العلوم الدينية والإنسانية ، والعلوم التجريبية ــ كان فهم أسلافنا ، وكان ذلك أثراً من آثار « إيمانهم » بأن الكتاب ما فرّط من شىء ، فيه صلاح معاشهم ومعادهم ، وأن دراسة العلوم الإنسانية والكونية ، إنما هى امتثال لأمر القرآن بالنظر والتدبر والتفكر ، وكان طلب العلم على إطلاقه شعارهم ودثارهم ، تأدباً بقول القرآن ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾ وقوله ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ ١٢ : ٧٦ وكانوا يَحذَرون ، ويُحذِّرون من الاكتفاء ببعض العلم ، قال الإمام الشافعى وقد سئل : متى يكون الرجل عالماً ؟ قال : إذا تحقق فى علم فعلمه ، وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته ، فعند ذلك يكون عالماً ! !

والشافعى بجوابه هذا ، يرسم منهجا علمياً هو هو منهج العلم الحديث : يجب على العالم أن يتحقق فى علم ،

ويتخصص فيه ، ويعمق مدركاته . . . ، وعليه فى الوقت ذاته أن ينظر فى سائر العلوم ليوسع دائرة مداركه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وما فتئت أُعجب بقول الإمام الغزالى فى « جواهر القرآن »[1] : الجهل أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء . وفى معرض تعداده لعلوم القرآن قال : إنه ظهر له بنور البصيرة الواضحة ، التى لا يتمارى فيها ، أن فى الإمكان والقوة ، أصنافاً من العلوم ، فوق ما علم البشر من علوم الدين والدنيا ، وهذه العلوم لم تخرج إلى الوجود ، وأن فى قوة الآدمى الوصول إليها،ثم يقول : هذه العلوم ، ما عددناها وما لم نعدها ، ليست أوائلها خارجة عن القرآن . ثم يسرد الغزالى إشارات القرآن الكريم إلى علوم كثيرة . مثل الطب ، والفلك والحساب . والتشريح . . .

وقد عقد العلامة ابن القيم فى كتابه « مفتاح دار

---

(١) صـ ٢٨ ـ ٣٧ .

السعادة » فصولاً كثيرة بلغت صفحاتها المئات ، درس فيها كثيراً من آيات الله فى الكون ، والإنسان ، ثم قال فى بيان أن هذه العلوم وغيرها فضل من الله على عباده صـ ٣٠٤ : كذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم كعلم الطب والحساب ، وعلم الزراعة والغراس ، وضروب الصنائع ، واستنباط الحياة ، وعقد الأبنية ، وصنعة السفن ، واستخراج المعادن ، وتهيئتها لما يراد منها ، وتركيب الأدوية ، وصنعة الطعام ، والصيد ، والتصرف فى وجوه التجارة ، والتصرف فى وجوه المكاسب ، وغير ذلك .

هذا الفهم الشامل لمدلول العلم ، وهذا الانفتاح العقلى الذى كان أثراً من آثار تحرير الإسلام للعقول وإطلاقها من عُقُل التبعية والتقليد والجمود والركود ــ هو الذى طوّع للعرب فى عصور حضارتهم الإسلامية ، أن يقبلوا على الحضارات القديمة ، بكل معارفها وعلومها ، فينقلوها إلى لغتهم ، ثم يفعلوا بها ما

يفعل النحل برحيق الزهر الذى يمتصه ثم يخرج منه شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ، فاستفادوا وأفادوا ، وكانوا لتلك الحضارات خير الوارثين ، وخير المورثين ، وأصبح لهم من علومهم الموروثة ، والمنقولة ، دراسات متنوعة ، تشتمل على الدراسات الدينية ، والأدبية ، والعلوم وتطبيقاتها ، وقامت لهذه الدراسات مراكز عربية إسلامية فى حواضر الدولة تقرأ تفصيلها وعلومها فى كتاب الدكتور على حسنى الخربوطلى « الحضارة العربية الإسلامية »[1] وكتاب « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » للأمير شكيب أرسلان .

وكان التمزق السياسى الذى أصاب الدولة العباسية وقيا دول متعددة على رقعتها الواسعة ، وإن كان وهناً من الناحية السياسية ، غير أنه كان من الناحية العلمية ، ذا أثر فى تنشيط الحركة الفكرية والعلمية . وانتشر الثقافة الإسلامية انتشاراً يدعو إلى الإعجاب بفضل

---

(١) الباب الرابع .

نضج ملكات المسلمين فى البحث والتأليف ، وكان لقيام تلك الدول أثر كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية ، فبعد أن كانت بغداد مركزاً للثقافة والعلوم ، ظهرت مراكز أخرى تنافسها فى ذلك ، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى والموصل وحلب ، وأصبح كلٌ منها قبلة العلماء الذين تنقلوا بينها طلباً للعلم . كما زخر بلاط هذه الدول بالعلماء ، بفضل تشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ، واتساع العمران ، واتساع أفق الفكر الإسلامى[1]

ولم يقف الاهتمام بالحركة العلمية ، سواء منها ما يتعلق بالنقل ، أو الإبداع فى المنقول ، على حد الخلفاء ، والأمراء بل ظهر عدد كبير من الأفراد ، حاكَوْا الخلفاء فى اهتمامهم الأصيل بتلك الحركة ورعاية العاملين فيها ، وإنفاق الأموال الطائلة ، وكان أولاد موسى بن شاكر ، على رأس العاملين على تنشيطها ، والباذلين فى سبيلها أضخم الأموال : كانوا يشرفون ،

(١) عبد الستار آدم . منبر الإسلام عدد المحرم سنة ١٣٩٢

« فى بيت الحكمة » على دائرة العلوم الرياضية ، والفلك ، والميكانيك ، وغيرها . وكانوا ممن ولعوا ولعاً شديداً باقتناء الكتب الفلسفية ، والرياضية ، والميكانيكا ، والفلك ، ولا سيما اليونانية منها ، وشاركوا فى البعثات التى أوفدها المأمون إلى بلاد الروم بحثاً عن الكتب العلمية ، فقد رحل محمد بن موسى عدة مرات إلى اليونان ، وآسيا الصغرى ، ابتغاء الحصول على كتب الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات ، والميكانيكا ، وعندما زادت إيرادات بنى موسى ، أخذوا يرسلون البعوث على حسابهم الخاص إلى البلدان الأخرى ، لاستخراج الكتب العلمية منها ، وجلبها إلى بغداد . وكان من بين من أنفذوه لهذا الغرض « حنين بن اسحق » الذى قدمه إلى أولاد موسى بن شاكر ، الطبيب « جبريل بن بختيشوع » وأصبح من العباقرة الكبار فى الترجمة عن اللغات اليونانية ، والسريانية ، والفارسية ، وفى الطب والفلسفة(١)

---

(١) سليم التكريتى . مجلة العربى عدد ١٠٧ ، ١٥٥ . ومن أراد المزيد من=

وهذا مثل يوضح لنا تقدير الدولة الإسلامية ، التى قامت بالإسلام ، وللإسلام ، للعلم ، والعلماء ، بصرف النظر عن دينهم ، فهذا حنين بن اسحق ، النصرانى ، وهناك الصابنى ثابت بن قرة ، عالم الهندسة الكبير ، الذى بلغ من تقدير الخليفة المعتضد لمنزلته العلمية أن كان يدخل عليه الوزراء والعظماء ويظلون وقوفاً بينما ثابت بن قرة قاعداً بأمر الخليفة . وهناك اليهودى المصرى « ما شاء الله » عالم الفلك . هؤلاء وغيرهم إلى جوار العربى المسلم « جابر بن حيان » الأزدى و « الخوارزمى » المسلم أبو عبد الله محمد بن موسى . . .

ألا ما أعظمه اتساع أفق ، وضخامة قلب ، وسماحة دين[1]

= معرفة تاريخ العلوم عند العرب فعليه أن يرجع إلى كتاب « تاريخ الأدب العربى » للمستشرق « كارل بروكلمان » بأجزائه السته .

(١) الدكتور أحمد زكى . مجلة العربى العدد : ٦٣ ، ٧٠ ونسب « ما شاء الله » إلى مصر ، وهو فى « بروكلمان » بصرى : قال : ما شاء الله=

لقد تسلم العرب المسلمون هذا التراث العلمى الضخم ، بأمانة المسلم ، وحياد العالم ، فمحصوه ونقدوه وأنموه ، وابتكروا فيه ، ثم ظهر عليه الأوربيون ، فكان المعبر القوى المتين الذى عبروا عليه إلى نهضتهم العلمية الحديثة .

ويعترف المنصفون من المستشرقين بأن الرومان لم يحسنوا القيام على التراث الإغريقى ، وأن العرب كانوا على خلاف ذلك ، فقد حفظوه وأتقنوه ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل تعدوه إلى ترقية ما أخذوه وتطبيقه ، باذلين الجهد فى تحسينه ، وإنمائه ، حتى سلموه إلى العصر الحديث .

ويقول بعضهم : لا نبالغ إذا قلنا : إن أوربا مدينة للعرب بخدمتهم العلمية ، تلك الخدمة التى كانت العامل الأكبر فى النهضة العلمية الأوربية فى القرنين الثالث عشر

= « منسىّ» بن أثرى البصرى اليهودى ، الذى توفى حوالى ٢٠٠ هـ من الباب الرابع عشر : علم الفلك .

والرابع عشر .

ويقول المرحوم الدكتور مشرفة : صحيح أن حل المعادلات كان معروفاً لدى الإغريق ، وعند الهنود ، وأن « الخوارزمى » قد اطلع على ما لدى الهنود والإغريق من علم رياضى ، ولكنا لم نعثر على كتاب واحد يشبه كتاب الخوارزمى،وتتجلى عبقرية الخوارزمى فى أنه خلق علم الجبر من معلومات مشتتة ، وغير متماسكة[1]

ويقول الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « جابر بن حيان »[2] : كان جابر ، شأنه فى ذلك شأن رجال العصور الوسطى جميعاً ، يستخدم أصوله الفكرية من تراث اليونان ، ثم يبنى عليه ما شاءت له قدرته ، أن يبنى من علم جديد ، ومن التراث الفلسفى اليونانى أخذ

(١)« الفكر العلمى الإسلامى » محاضرات الدكتور عبد الحليم منتصر فى معهد الدراسات الإسلامية ١٩٦٤ — ١٩٦٥ م صـ ٦ وأيضاً « بروكلمان » فى تاريخ الأدب العربى : الباب الثالث عشر : الرياضيات .

(٢)من سلسلة أعلام العرب صـ ٦ — ٧ ، ٤٠ ، ٦٠ — ٦٣ .

جابر فكرة الطبائع الأربع الأولية التى منها نشأت الكائنات جميعاً ، وهى الحرارة والبرودة ، واليبوسة والرطوبة ، وجعلها أصلاً للكائنات جميعاً ، وإذا كانت أصول الأشياء مشتركة بينها جميعاً ، جاز أن نحوِّل بعضها إلى بعض ، ولعل أهم ما شغل جابراً من ذلك هو تحويل المعادن بعضها إلى بعض . . كان منهجه فى بحوثه كلها يعتمد على الأسلوب العلمى بمعناه العصرى ، الذى يعتمد على التجربة والملاحظة . والذى وضحه هو بقوله : « . . قد عملته بيدى ، وبعقلى من قبل ، وبحثت عنه حتى صح ، وامتحنته فما كذب » . وهذا ما عرف إبان النهضة الأوربية باسم « المنطق الحديث » فقد سبق ابن حيان إلى الكتابة بما يكفى وحده أن يضع هذا العالم بين أئمة المنهج العلمى . فضلاً عن منزلته التى اكتسبها بقضاياه العلمية نفسها .

ونحن لا نستطيع فى هذه الإلمامة القصيرة ، أن نلم بنَبَت من علماء لنا كان لهم القدح المعلى فى ميذان

التفسير العلمى الصحيح . وتعتبر الحقبة التى تمتد من منتصف القرن العاشر الميلادى ، إلى منتصف القرن الحادى عشر ، من أزهى العصور العلمية حين بلغت الحضارة الإسلامية ، ذروتها ، وازدهرت بابن سينا ، والبيرونى ، وابن الهيثم ، ولقد ظهر من العلماء العرب أفذاذ ، كالكندى ، والفارابى ، والرازى ، وجابر ، والخوارزمى ، والبتانى ، وغيرهم ممن يزدهى بهم العلم ويزهى فى كل عصر وآن .

وليس من شك فى أننا — العرب — أهلُ إصالة ، وإنالة ، فى العلم ، بكل ما يتصل بكلمة العلم بمعناها المعاصر — قدنا الإنسانية مرة نحو المجد والقوة ، بفضل وَفْر كريم من العلماء العرب ، حملوا المشعل ، وأضاءوا دياجير الجهل فى الوقت الذى كانت أوربا غارقة فى ظلماته ، ولعلنا من الناحية العلمية أغنى الأمم تراثاً ، وقد تعاقبت علينا حضارات تمثلناها ، ووعيناها ، وقمنا بذلك الواجب العلمى ، والإنسانى ، نحو البشرية

كلها . وكانت لغتنا العربية يوماً ، هي اللغة العلمية العالمية ، وكانت تحتكر المؤلفات العلمية . إن حضارة العصر لمدينة لحضارة العصور العربية الإسلامية الزاهية كما يقول « كاربنسكى » : إن الخدمات التى أداها العرب للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين . وإن البحوث الحديثة ، قد دلت على عظم دَيْنِنَـــا للعلمـــاء المسلمين الذين نشروا نور العلم بينما كانت أوربا غارقة فى ظلمات القرون الوسطى(١)

فإذا قمنا نحن اليوم ، نسترد هذا المجد ، ونبنى عليه أمتنا الجديدة ، ودولتنا الحديثة ، فإنما نفعل ما يتفق وجذورنا التاريخية ، وما يرشد إليه ديننا . وإنها لأمانة فى أعناقنا نحن أحفاد العرب ، أن نحمل المشعل مرة أخرى لنضىء الطريق ، ونقود الإنسانية . كما فعل أسلافنا أول مرة .

---

(١) الفكر العلمى صـ ٤٧ ، ٥١ .

٤ ــ الإيمان

للإسلام ، فى بناء المجتمع ، مبدأ يؤسسه عليه ، ويعلى فوقه بناءه ، ويحدد به معالمه ، وتنبعث منه حركته ، وتتشكل به نظمه ــ ذلك هو العقيدة الدينية . تلك العقيدة التى حقيقتها الإيمان بأن للكون إلهاً واحداً خالقاً ، متصفاً بالكمال فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . وأنه لم يخلق الإنسان ليفنى ، بل خلقه ليبقى ، ولذلك لم يتركه سدى ، بل رسم له صورة حياته ، وصورة آخرته ، وهداه سبيلها القويم .

ومن هذه العقيدة تنبع كل التصرفات فى المجتمع الإسلامى ، والذى يكون فيه المسلم سلماً لله ، مسالماً الناس .

وخروج الإنسان عن هذا المنهج إفساد لنفسه ، وإفساد للكون وإفساد لربانيته ، فتفسد حياته ، فينتهى أمره إلى ما لا يرضاه خالقه له .

والإسلام حينما يؤسس مجتمعه على العقيدة ، لا يجافى المنطق الفطرى الذى يستقيم وطبيعة الإنسان المركوزة فيه ، والتى لا يجحدها حتى أشد المتعصبين على فكرة الأديان ، فالعقيدة الدينية فطرة الإنسان ، وهى وليدة حاجة فى نفس البشر ، لا يمكن قهرها ، أو اجتثاثها ، مهما كانت القوة التى تستخدم فى ذلك . فالشعور الدينى فطرة تكاد تساوق البديهة فى الجلاء ، فتأسيس المجتمع عليه ، تأسيس له على ركائز راسيات ، تقوى على حمل ما يرتفع عليها من بناء . ومن ثم كان بناء المجتمع عليها يمنحه من القوة ، والاستقرار ، والدوام ، ويعطيه من قوة التضحية . . . ما يعجز أى أساس آخر عن منحه ، مهما كان فيه من الإغراء بالرفة . والتاريخ شاهد بأن الأمة التى لا يشترك أفرادها فى الميول والمعتقدات ، ليست سوى صورة بناء مركوم من لبنات لا رابطة

بينها ، ولا مساك لها ، ولا قوة عندها ، ولا بقاء . وأن أقوى هذه المعتقدات ما كان على أساس دينى !

وعلى ذلك يكون بناء المجتمع على العقيدة الدينية ، على أساس فطرة الإنسان ، بناءً يمنحه القوة ، والتماسك ، وهو أيضاً ، يمنحه السعادة ، فبالعقيدة يستخرج الإنسان أعمق ما فى الحياة من لذات ، فالمجتمع الذى يقوم على أساس المطالب المادية ، يختلف كل الاختلاف عن مجتمع يواجه صعاب عالمه ، وعقباتِه ، بكثير من اليقين والثبات ، والصبر ، فى سبيل ما يعتقد أنه حى باق ، قد أفاض على الكون نعمة الوجود ، ومنحه فضله ، وأعطاه خلقه . فمن غير المجحود ، أن قدر الطاقة ، والتحمل ، والشجاعة ، والقدرة على التغلب على الصعاب — غيرُ محدود عند هؤلاء الذين لهم عقائد دينية .

إن المجتمع المستقر المنظم ، لا يمكن أن يوجد كاملاً ، إلا حيث توجد قوة مقدسة تتقبل أفراده مطالبها ،

وأحكامها برضا وارتياح .

وهذا ما منحه الإسلام — فعلاً — لأبناء مجتمعه ، فقد استمد منه أبناؤه القوة التى بها بسطوا جناحيه على أنحاء المعمور ، المعروف آنئذ ، فبتلك القوة تحول رعاء الشاء والإبل إلى ساسة أمم ضرب بهم المثل قيادة وعدلاً ورحمة ولقد كان أثر تلك القوة الدينية ، التى منحها الإسلام معتنقيه عظيماً ، حتى بعد أن تقطعت دولته الكبرى ، إلى دويلات يستهين الاستيلاءَ عليها شعوب مختلفة ، من المغول وغيرهم الذين جاءوا لمحض الغلبة ، وفعلوا فى تاريخ البشرية ، ما تشيب له الولدان ، ووقفت عقيدة الإسلام ، وقفة القائد خذله أنصاره ، ولكنها كانت من القوة ، فى نفس أتباعها ، بحيث ردتهم إلى ميعاد ، وحملت جميع الذين استولوا على ممالك العرب القديمة ، على التدين بدين المغلوبين ، وبذلك لم يتوقف زحف الإسلام ، وانتشاره ، وجمْعُه أتباعه ، حتى بعد زوال سلطان أهله السياسى ، وتلك ميزة للإسلام حار

فى تفسيرها العلماء جيلاً بعد جيل ، وهى — عندى — ترجع إلى ثلاثة أمور :

١ — سلامة العقيدة الإسلامية ، وعدم مصادمتها للعقل والفطرة ، وإطلاقها للإنسان حريته ، وحفظها عليه كرامته واشتمالها على عناصر الخلود والانتشار ، التى تساير كل زمان ، وتناسب كل مكان .

٢ — صلاحية هذه العقيدة بفروعها ، للتطبيق الذى يظهر سموها على كل تنظيم : أوتشريع غيرها ، ويظهر أنها مثالية وواقعية معاً .

٣ — إيمان أهلها بها ، وارتخاصهم فى سبيلها كل نفيس وغال ، بما منحتهم من السكينة ، والسعادة ، والقوة . . .

وهناك سبب رابع ، يظهر فضلها ، ولكنه خارج عنها ، وهو فساد ما كانت عليه مجتمعات عصرهم من

فكر دينى ، ونظم اجتماعية وسياسية[1]

والقرآن يبدىء ويعيد ، فى بيان منزلة الإيمان والمؤمنين ، عند الله ، وأثر الإيمان فيهم ، وما للمؤمنين من تأييده ، ونصره ، وإنعامه ، وإعزازه ، وهدايته إياهم . . بإيمانهم . وينوّع فى ذلك ، الأساليب ، والحجج والمحاجة ، موضحاً فى سورة الروم أن ذلك هو فطرة الله التى فطر الناس عليها « ٣٠ — ٣١ » ومبيناً فى سورة الأعراف « ١٧٢ » أن الإيمان به ، عهده الذى فطر عليه ذرية آدم . ثم يبين فى سورة يونس « ١٩ » أن هذا الإيمان هو تاريخ الناس فى الأرض ، الذى يلزمهم العود إليه ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ ويبين القرآن فى آية البقرة : ٢١٣ أن الغرض من بعث النبيين هو رد الناس إلى هذا الإيمان عن الاختلاف الذى وقعوا فيه ، وتوضيح مَعْلَمهم

(١)من بحث لكاتب هذه السطور ، منشور فى « مجلة الفكر الإسلامى » اللبنانية العد الحادى عشر من السنة الأولى صـ ٧٠ .

التاريخى الذى كانوا عليه أمة واحدة على الإيمان الجامع للقلوب ، المقوم للسلوك . وبتلك الرسالات التى أنزل معالمها على رسله ، وجعلها علينا من بعد رسولنا واجبـاً . . يرد الله على النـاس ، ما يرد من صبـح على ليل ، وذلك ملحظ واضح فى خطبة الرسول التى ذكرها الجاحظ فى الجزء الأول من كتابه « البيان والتبيين »[1] : « يأيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم . . . »

* * *

---

(١) ص ١٦٠ طبعة بيروت .

٥ ـــ مدلول الإيمان

والإيمان ـــ بمدلوله التطبيقى فى الإسلام ـــ سلوك قويم ، وعمل صالح ، ونفع عام . . لذلك نجد القرآن يقرن فعل الخيرات ، والصلاح والإصلاح ، ورعاية الحقوق ، وأداء الواجبات ، والتعاون على الخير ، والوحدة الاجتماعية ، والحفاظ على سلامة المجتمع ، وغير ذلك ، مما يعلى الفرد والجماعة ـــ بالإيمان ـــ ويقرن أضداد ذلك ، بغير المؤمنين ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم . نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ التوبة : ٦٧ ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله**

ورسوله . أولئك سيرحمهم الله . . ﴾ التوبة : ٧١
ولذلك كان السلوك الصحيح النافع للفرد والجماعة علامة الإيمان الصحيح الكامل حتى إنه ليجوز لك إسلامياً أن تقول : إنه هو هو ، قال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم[١] : إطلاق اسم الإيمان على العمل متفق عليه عند أهل الحق ودلائله فى الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تشهر وقد سأل أبو ذر النبى ﷺ عن الإيمان فتلا عليه قوله تعالى ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ البقرة : ١٧٧ .

---

(١) جـ ١ صـ ١٤٩ .

٦ ــ الصلة بين العلم والإيمان

ومن أجل أن السلوك العملى هدفُ الإسلام عند دعوته إلى الإيمان أسسه على المعرفة التى تملك العقل بالبرهان والنفس بالإذعان . ومن ههنا كان تأسيس الإيمان ، على العلم ، وقد عقد البخارى فى كتاب العلم من صحيحه باباً تحت عنوان « العلم قبل القول والعمل » قال الحافظ بن حجر فى شرحه[1] : أراد أن العلم شرط فى صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما ، والقول والعمل اللذان يشير إليهما البخارى هما الأمر بالاستغفار فى قول الله عزوجل فى سورة محمد : ١٩ ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله**

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١ صـ ١٣٠ .

واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ وهذا الاستغفار مظهر من مظاهر الإيمان وسمة من سماته وهو رابطة روحية ، وعملية بين المؤمنين وقيادتهم . ﴿ **وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ **وبين المؤمنين بعضهم مع بعض** ﴿ **يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا** ﴾ الحشر ١٠

وهذا الذى ذكره البخارى ، وأيده شارحه الأكبر قاموس السنة ، من تقديم العلم على العمل فى الذكر والرتبة ، جاء مصرحاً به فى القرآن الكريم فى غير موضع . ففى سورة الروم يذكر الله تعالى طائفة من آياته الكونية فى الأنفس والآفاق ، من خلق الناس من تراب وخلق السموات والأرض واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، ونومهم ويقظتهم ، وإرسال الريح وإنزال المطر . . . ويبين أن هذه آيات للعالِمين (جمع عالم بكسر اللام)يهتدون بسبب العلم بآثار رحمة الله فى الكون والناس إلى الإيمان به ثم يعقب على ذلك بذكر

الساعة، حسرة الكافرين فيها وجهلهم بدنياهم وأخراهم ﴿ **ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون** ﴾ ثم يأتى الرد عليهم من قبل العلماء المؤمنين ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون** ﴾

وبسبب هذه الصلة السببية فى القرآن بين العلم والإيمان ، يقرن بين الضلال والكفر وبين الجهل وفى سورة الروم نفسها : ٥٩ ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون** ﴾

فبين العلم والإيمان إذن تلازم الشرط بالمشروط والأساس بالبناء ، والسبب بالمسبب

* * *

٧ ــ العلم يدعو إلى الإيمان

جعل القرآن ــ كما ظهر لنا الآن ــ تلازماً بين العلم والإيمان، وبين الجهل والكفر، وكثيراً مايجمع بين التلازمين فى قرن، ويُقَفِّى بذكر أحدهما على الآخر، وذلك كما فى سورة يونس : ٥ ــ ٨ ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون.إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون،أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** ﴾

بعد هذا البيان المؤسس على هذه الآيات القرآنية فى آيات الله الكونية ـــ أعيذ باحثاً أياً كانت شاكلته ، من أن يفهم أن المراد بالعلم الذى ربطه القرآن بالإيمان وربط الإيمان به ، هو « علم الدين فقط » كما زعم ذلك بعض الزاعمين ، وقد جعل القرآن دراسة الدين « تفقهاً » فى قوله ٩ ـــ ١٢٢ ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين** ﴾ على حين جعل الدراسات الكونية « علماً » ودارسيها « علماء » وقصر عليهم معرفته وخشيته ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ فاطر : ٢٧ ـــ ٢٨ وقد أوضحت مدلول العلم فى الإسلام أيما توضيح أيده الواقع الحديث بكتابىْ « الله يتجلى فى عصر العلم » و « العلم يدعو للإيمان » .

* * *

٨ ـ الإيمان يدعوا إلى العلم

ما دام القرآن الكريم قد أسس الإيمان على العلم ، ونعى على المقلدين ، وسفه عقولهم ، وحكى على لسان شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام من محاورته أباه قوله ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك** ﴾ ثم يطلب منه الإيمان بقوله ﴿ **فاتبعنى أهدك صراطاً سويا** ﴾ مريم : ٤٣ مادام هذا منطق القرآن فهو إذن يدفع المؤمنين إلى طلب العلم والمزيد منه ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ومن ثم نجده فى مواضع :

١ ــ يجعل المؤمنين أهل التذكر ، والتفكر ، وأهل العلم .

٢ ــ ويجعل « المادة والأشياء » طريق هداية للمؤمنين .

٣ — ويربط بين القرآن والكون بروابط متعددة تدعو إلى الدهش .

والعجب من أن يكون القرآن ، وهو كتاب دين وهداية فى المحل الأول داعيةً إلى المادة ودراستها ، جامعاً بينه وبينها إلى هذا الحد :

فالقرآن يقول ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك ، فقنا عذاب النار . . .** ﴾ ٣ — ١٩١ ويقول ﴿ **والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا** ﴾ الفرقان — ٧٣ ويقول ﴿ **خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ العنكبوت — ٤٤

والقرآن يقرر أن بين الله والناس وشائج روحية بما نفخ فيهم من روحه ، وبما شرع لهم من دين . وأنزل عليهم من وحى . وأخرى مادية ، شاخصة فى أنفسنا وفيما حولنا فهو لا يفتأ يذكرنا ، وينادى الناس عامة ،

والمؤمنين خاصة ، بمبدأ وجودنا منذ خلق الإنسان من سلالة من طين ثم جعله نطفة فى قرار مكين ، ثم تناولته يد القدرة ، فى بقية مراحله ، كما تناولته منذ أولها إلى أن صار خلقاً سوياً فى أى صورة ما شاء ركبه[1]

وينتقل القرآن فى حلقات متتابعة ، يشعرنا فى كثير من مقاماته ، بأن السمع والبصر والأفئدة من خصائص الإنسان للمعرفة ، وأنها لم تخلق فيه إلا لغاية ، وأنها أدوات الإدراك والتعقل ، وآلات العلم ، الباحث فى مجاهل الحياة عن أسرار هذا الوجود ، وأن الكافرين هم الذين يهملون استخدام هذه الأدوات فى الذى خلقت له ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ الأعراف ــ ١٧٩ ، وأما المؤمنون فهم أولو الألباب المتدبرة ، والآذان الواعية . .

(١) الشيخ عبد اللطيف السبكى . نفحات القرآن جـ ٢ صـ ٩ .

وقصارى الحديث فى هذا المجال الفسيح ، أن القرآن « كتاب الإيمان » يوضح أن لله تعالى وشائج اتصال بخلقه ، فكما شرع لهم ديناً ، كذلك عمر لهم دنيا ، وأنه أبدع فى تشريعه الروحى ، وفى تنظيمه الدنيوى ، وأنه هداهم بوحيه إلى العلم به وبخلقه ، وأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بهذه الهداية ، يهديهم بإيمانهم إلى استفراغ الجهد فى التعرف عليه وعلى آلائه وآياته .

ومن عجائب القرآن الكريم فى ذلك ربطه بين القرآن ، وبين هذا الوجود المادى ، وإنى لموجز لك أوجه هذا الربط بين القرآن والكون ، فى عشر نقاط :

١ ــ أخبر الله عن القرآن بأن الناس لا يدركون كل علومه ، وكذلك قال عن الكون : قال الله عن القرآن ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ وقال عن الكون ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾

٢ ــ أخبر الله عن القرآن أنه سيكشف عما جهل

منه ، وكذلك قال عن الكون : قال الله عن القرآن ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ وقال عن الكون ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق . .** ﴾

٣ — أخبر الله عن القرآن أنه هداية عقلية كافية ﴿ **أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . .** ﴾ وقال عن الكون ﴿ **إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾ يونس — ٦

٤ — أخبر الله عن القرآن أن من الناس من يُغان على قلبه ، فيغفل عن هدايته ﴿ **أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ وكذلك قال عن الكون ﴿ **وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ .

٥ — أخبر عن القرآن أن الناس يعجزون عن الإتيان بمثله أو سورة منه ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن**

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ﴾ وقال عن الكون ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات . . . ﴾ ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾

٦ ـــ قال الله عن القرآن إن النظرة الجزئية لبعض مواضعه تهدى ، وقد تضل ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ وقال عن الكون ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾

٧ ـــ أخبر الله عن القرآن والكون أن غايتهما واحدة ، هى العلم بالله ، كما فى آخر سورة

﴿ **الطلاق** ﴾ ومنه فى ﴿ **الفرقان** ﴾ ﴿ **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض** ﴾

٨ ــ أخبر الله أن القرآن مصون من الباطل ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل** . . ﴾ وقال عن الكون ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا** ﴾ ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا** ﴾

٩ ــ أخبر الله عن القرآن والكون أن مصدرهما واحد وعالم أسرارهما واحد وهو الله الذى خلق الكون وأنزل الكتاب ، كما جاء فى آية الفرقان ﴿ **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض** ﴾ ولذلك جمع بينهما الرسول فى دعائه يوم غزوة الأحزاب « اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، اهزم الأحزاب » .

١٠ ــ عظم الله شأن القرآن والكون وكان مظهر هذا التعظيم فى شيئين : أن وصف نفسه بإنزال القرآن وخلق الكون ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** ﴾ ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض**

وجعل الظلمات والنور ﴾ ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ .

وأن أقسم الله بالقرآن وبالكون ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾ ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ ﴿ والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفا . . ﴾ ﴿ والسماء ذات البروج . . ﴾ ﴿ والسماء والطارق . . . ﴾ ﴿ والفجر وليال عشر . . ﴾ ﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى . . . ﴾

ألا إن هذا القرآن كون قرآنى ناطق !

ألا إن هذا الكون قرآن كونى صامت ! (١)

(١)من بحث لكاتب هذه السطور بعنوان « الوحدة القرآنية » ، ونشرت هذه العشرة فى مجلة رابطة العالم الإسلامى التى تصدر بمكة المكرمة العدد الثامن من السنة العشرين شعبان سنة ١٤٠٢ يونيو سنة ١٩٨٢ صـ ٣٩ ، وقيلت ضمن سلسلة خطب بمسجد الجمعية الشرعية بالمنصورة ، وضمن سلسلة محاضرات بمدينة المنزلة دقهلية .

وبعد فهذا الفهم للقرآن وذلك اليقين الذين استيقنه المسلمون الأولون ، وإيمانهم بالقرآن الذى ما فرط من شىء . . . هو الذى حثهم على استيعاب المعارف والعلوم على النحو الذى بينته فى الفصل الأول ، وهو هو الذى يجب أن نحث به الخطى نحو بناء أمتنا على العلم والإيمان

* * *

٩ ــ مضار الانفصال بين العلم والإيمان

شغلتنى ، منذ زمن طويل ، مسألة قرآنية ، خلاصتها : لماذا كان اهتمام القرآن بتصحيح العقيدة فى المحل الأول ؟ ولماذا لم يدع مجالاً من حياة الناس . إلا ربطه بالتذكر بالله ، حتى صار كل موضوع من موضوعاته تابعاً فيه لموضوع العقيدة نابعاً من أصلها ؟ ولماذا رفض لإثبات صحة الاعتقاد ، ورسالة محمد ﷺ خوارق العادات ، رغم إلحاح الكافرين ، واكتفى من أدلة إثباتها بأدلة النظر والتفكر التى يكسبها المستدلون بنظرهم وتفكرهم ، مخلصين فى طلب الحق ، متجردين من كل تأثير يبطل الفكر السليم ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة ! ! أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . .** ﴾ ٣٤ ــ ٤٦

(١) للكاتب بحث تفصيلى فى هذا ألقاه على حلقات بالجمعية الشرعية بالمنصورة .

وقد تبين لى ، فيما تبين ، أن صحة الاعتقاد ، وسلامة التدين ، ثم سلامة المنهج الاستدلالى — السبب الأول فى رقى الإنسان فى جميع مجالات حياته : الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية . . . وتبلغ به فى درجات الحضارة الإنسانية مراقى لا تقف عند حد ، إذ تكون قد أطلقت وجدانه ، وفكره ، وإرادته من كل الأثقال التى تقعد بها ، وبه ، عن النهوض ، ومن كل الأغلال التى تعوقه عن الانطلاق .

١ — وما ظنك بدين يوحد مشاعر الإنسان نحو إله واحد ، متصف بصفات الكمال ، ثم يقول نبيه « تخلقوا بأخلاق الرحمن » والقصد من أخلاق الرحمن ، الأخلاق المقتبسة من صفات الله ، التى يجمل بالإنسان أن يتقلدها ، تجاوباً مع دعوة الرسول ، كالعلم ، والحلم ، والعدل ، والرحمة . . .

٢ — وما ظنك بدين لا يجعل خضوع الإنسان ولا إسلامه واستسلامه ، إلا لله وحده ، ويجعل من

الشرك البين خضوعه لغير الله ، كائنا ما كان ذلك الغير ، ويجعل « من الشرك الخفى صلاة الرجل لمكان الرجل » .

٣ ــ وما ظنك بدين لا يجعل ما لقيصر لقيصر ، بل يجعل القيصر مسئولاً عن رعيته ، قائماً على مصالحها ، وكان من شأنه أن يحاسب « قيصر » على مالَه ، ومالِه ، ويأخذ على يده فى عمله ، ويجعل طاعته مرهونة بطاعة الله ، ويفرض له الإعانة ما أحسن ، ويوجب على أمته النصح له ، وتقويمه إن أساء .

٤ ــ وما ظنك بدين يطلق مجالات الفكر ، ويجعل الكون كله ميدان عمل له ، يهتدى به . . .

٥ ــ وما ظنك بدين يجعل المال « خيراً » من فضل الله ، والناسُ مستخلفين فيه ، ويطلب منهم ، بوازع الإيمان ، أن ينفقوا مما جعلهم مستخلفين فيه ، ما أوجبه عليهم ، وما ندبهم إليه . . .

٦ — وما ظنك بدين يفرض العلم ، ويلعن كاتميه ، وينفى المساواة بين العالمين والجاهلين ، ويمد أمام طالب العلم آفاق الرحلة فى طلبه حتى لو ارتحل فى طلبه من « المدينة » إلى « الصين »[1] ويبسط أمامه آماد المعرفة ، ويمدها إلى غير حدود ، فيقول ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ .

ثم ما ظنك بدين يجعل المؤمنين إخوة يوالى بعضهم بعضا ، يحسّ بعضهم بإحساس بعض ، ويحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، ويأبى له ما يأباه لها ، ويجعلهم تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويداً على من سواهم . ويجعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتعاونوا ويأتلفوا ، لا ليتناكروا ويختلفوا ، ويجمعهم فى وحدة

---

(١)إشارة إلى الحديث : « اطلبوا العلم ولو فى الصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » قال السيد رشيد رضا فى تعليقه على كتاب شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون ؟ قال : رواه العقيلى وابن عدى والبيهقى وابن عبد البرعن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى فى فضل العلم ، وله طرق يقوى بعضها بعضا .

الخلق ووحدة الخالق ، على دعوة واحدة ﴿ **يأيها الناس ، اتقواربكم ، الذى خلقكم من نفس واحدة . . .** ﴾

أرأيت نتيجة لهذا المنهج الإسلامى كيف أعتق الإسلام الهمم ، وافتكّ العزائم من أسرها ، وأخذ المسلمون الأولون يطلبون الكمال ، كل على قدر استعداده الممنوح له من واجب الوجود ، وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الإيمان على أسرار الإيمان بالموجد والموجود ، ومزقوا تلك الحجب والأوهام ، واتصلوا بمنابع العلم المتعددة ، وسطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه إلا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه إلا عَلَوْه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان ، والفرس ، والرومان . إلا استخرجوه من زوايا النسيان ، وجعلوه فى متناول الطالبين ، بعد أن جلوا صدأه ونفوا خبثه ، وأوضحوا متشابهه . ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهور الإسلام حتى جال المسلمون فى علوم السموات

والأرض ، وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول ، وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ، ومسحوا الأرض . .

ظهر الإسلام ، لا روحياً مجرداً ، ولا جسمانياً جامداً ، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك ، وأخذ من كلا القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره .

جاء هذا الدين على هذا الوجه الذى ذكرناه ، فهدى ضالاً،وألان قاسياً ، وهذب خشناً ، وعلم جاهلاً ، ونبه خاملاً ، وأثار إلى العمل كسِلاً ، وأقدر عليه وَكِلا ، وأصلح من الخُلُق فاسدا ، وروّج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التى دخلت فيه نظاماً امتازت به عن سواها ، ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين ، بذلك عند أهله ، كمالاً للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاماً للملك ، وظهرت به آثار

النعمة عليهم فى جميع شئونهم(١)

والإسلام بشعبتيه : الروحية والمادية ، واتجاهيه : الفكرى ، والوجدانى ، يساوق فطرة الإنسان ، ويصنع الحضارة الإنسانية ، والإنسان المتحضر الذى يتوفر له من سعة العقل ما يمكنه من استخراج كنوز الوجود ومن سكينة الإيمان ما يوفر له السعادة والاطمئنان ، ومن وحدة الخلق ، ووحدة الخالق ، ما ينشر به ظل الحرية والإخاء ، فبعقيدة الإيمان :

١ ــ يبلغ الإنسان أقصى درجات الرقى الاجتماعى فى ظل أخوة الإيمان ، ووحدة الإنسان .

٢ ــ ويبلغ أقصى درجات الرقى السياسى فى ظل وحدة الخالق .

٣ ــ ويبلغ أقصى درجات الرقى الاقتصادى فى ظل

(١) الإمام محمد عبده . « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » صـ ٦٨ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . وبها حذف ، ونقص من الأصل يؤسف له .

وحدة الملك ، وحقوق الملك .

٤ — ويبلغ أقصى درجات الرقى العلمى فى ظل تحرير الفكر ، وإيجاب البحث غير المحدود .

٥ — ويبلغ أقصى درجات الإنسانية بتوجيه العلم بتهذيب الإيمان وتحقيق عزته ، وكرامته فى ظل تجريد كل من عدا الله من كل سلطة غيبية أو تشريعية أو رياسية . . .

وما شقيت البشرية ، وما نكست على رؤوسها ، فى ماضيها ، وفى حاضرها ، إلا بعدم التعادل والاعتدال بين الدين والعلم أو بالفصل بين عقل الإنسان ووجدانه ، فمنذ خضعت أوربا باسم الدين ، للقائمين على دينها ، وحجروا على العقول ، أوثقوا تفكيرهم ، وغلوا إدراكهم ، واستبدوا بكرامتهم ، بل وبحياتهم ، ووجهوا سياستهم إلى ما يشتهون ، واحتكروا لأنفسهم فهم الدين وتفسيره ، وباسمه أغلقوا — ظلماً — كل باب للعلم ، وأطفأ رجالٌ باسم الدين كل قبس من الفكر ، وحق

لتلك الاعصر ان تعرف بعصور الظلام ! !

ولم تكن الثورة الفكرية والسياسية على الدين ، إلا ثمرة من ثمار هذا السلطان الجائر الذى كان الدين أحد ضحاياه ، بل كان ضحيته الأولى ، حتى ظن من ظن — كردّ فعل لهذا الاستبداد الدينى — أنه لا حاجة للإنسان فى الدين ، وأنه لا إيمان إلا بما يقع تحت إمكان التجارب ، وأن عقل الإنسان وحده كاف لهدايته وإسعاده . . . ! !

ومهما كان لهذا المنطق من مسوغات فإنه كان لدوافع خارجة عن الدين الصحيح فى نقائه السماوى ، وطهره الإلهى ، وكان لابد منه ، فقد أتاح للبشرية أن تكشفَ عن الكثير من نواميس الكون وخصائص المادة ، وأن تستخرج الكثير منها لخدمة الإنسان ، وإمتاعه ، وأن يقيم هذه الحضارة التى ينعتها البعض بأنها حضارة « مادية » ، وهو نعت لا عيب فيه من وجهة النظر الإسلامية ، لأن المادة فى الإسلام من نعم الله على الناس ، بها ينتفعون ،

وهى — بعد — عنده طريق إلى معرفة الله الذى خلقها ، ويدبرها .

غير أن الغلوّ فى هذا المنطق ، ونكران كل قيم معنوية بعده ، واعتبار كل ما عدا « الفكر العلمى » « والمنطق التجريبى » ضلالا بعيدا — يخالف ، من ناحية ، طبيعة الإنسان التى هى مزاج من العقل والوجدان ، ومن ناحية أخرى ، فإن نتائج هذا المنطق ، وثمار حضارته ، لم تحقق للبشرية ما ظنته قريباً من سعادتها ، وسلامتها . يقول الدكتور أحمد زكى « العدد ١٢٠ من مجلة العربى » : بدأت العلوم الطبيعية الحديثة تنشأ من نحو ثلاثة قرون ، وعمادها العقل ، وعمادها المنطق ، وعمادها الأحاسيس جميعاً . وهى عندما نشأت ، وبدأت ثمارها تظهر ، وجاءت ثمراتها بما طاب للناس ، فأعجب وأدهش ، ظن قوم أن فى « العلوم » حل كل معضل ، وكان تفاؤلاً فى غير موضعه ، لأنه تفاؤل نسى أن العلوم لا تعمل إلا فى حقول يبصر فيها

الإنسان ، ويسمع ويلمس ويحس ، فى الطبيعة التى تقاس ، وتوزن أما ما وراءها فليس للعلم الحديث سبيل إليه . وآخرون ضلّوا فقالوا : لا حقيقة إلا ما وجدها « العلم » ، وإذن هم أنكروا ميادين لم يستطع العلم دخولها ، فضلوا السبيل .

وهنا يجب أن يشغلنا سؤال مهم : هل اتخذ أهل هذا « العلم » وهذا « المنطق » من الغربيين حقيقة ، دينهم وراءهم ظهريا ؟ وهل نبذ الدين أساس أولىّ ضرورى للنهضة العلمية ؟ وهل إنتاج العقل وحده ، وثمار هذا العلم ، هى الحضارة حقاً ؟ وهل هذا الإنسان الذى بلغ ذلك المبلغ المشاهد ، من تسخير المادة ، وكشف الكثير من قوانينها ، هو الإنسان الحضارى حقاً ؟

إن واقع الأمم « العلمية » اليوم ، وتاريخها منذ النهضة ، يؤكدان ــ على الرغم من دعاوى البعض ــ أنها لم تتخل عن دينها ، كشرط للنهوض العلمى ، والتقدم الحضارى ، وهذه هى اليابان ــ من أمم

الشرق — قد نهضت نهضتها ، التى أدهشت العالم فى شرقه وغربه ، مع شدة استمساكها بدينها ، بل هذه هى انجلترا ، وهى من أعرق الأمم الحديثة نهضة ، وبسطة فى السلطان ، لم تنبذ الدين وهى فى عنجهية سلطانها ، وعنفوان شبابها ، وكانت تناقش أخص المسائل الدينية فى مجالسها السياسية الرسمية « وماذا عسانى أحصى من هذه الأماثيل والعبر فى رسالة وجيزة كهذه ، وكل قوم يعتصمون بدينهم ، ومقومات ملتهم ، ولا ينبزون بهذه الألقاب إلا المسلمين »[1] لا لأغراض علمية ، ولكن لأهداف سياسية استعمارية .

وقد حدثنا أستاذنا الدكتور عبد الرحمن البزاز وهو قد عاش أزماناً متنوعة فى انجلترا طالباً للعلم وسفيراً لبلاده ، العراق ، أن ملك انجلترا بحكم منصبه ، يلتزم بحماية عقيدة كنيستهم ورعايتها ، وهو قد ذكر هذا فى كتابه « أبحاث فى القومية العربية صـ ٩٠ » وقال فى

(١)شكيب أرسلان « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » طبع دار المنار صـ ٨٧ .

هامشها : لو بصرنافى المسكوكات النقدية البريطانية للاحظنا تحت صورة الجالس على العرش ملكاً أو ملكة هذين الحرفين . D . F وهما مختصران من : Defender of the faith بمعنى : حامى المعتقد ، لأن صاحب التاج فى بريطانيا هو رئيس الكنيسة الأعلى ، وهو حامى الدين ، أو الرئيس الدينى الأعلى ،

وإنه لمما يجب علينا إدراكه بكل تفصيلاته ، ما تبذله دول الغرب ، جماعات وأفراداً ، لنشر دينها فى الجماعات المتخلفة ، وما يعملون له من محاربة الإسلام بالأسلوب العلمى بزعمهم . وهم ينفقون فى هذه السبيل الكثير من المال ، والعمر ، والجهد ، ويخصصون لها الرجال . . إذن ، ليس الدين عندهم بعامة ، معوقاً للنهوض ، وليس التخلى عنه من شروط التقدم العلمى ، ولا من أشراط الحضارة ، وشروطها .

غير أنا نذهب إلى أبعد من ذلك ، نذهب ألى أن التقدم العلمى وحده ، مجرداً عن سمو الإيمان ، وعلو

القيم ، لا يحقق الحضارة بمعناها الكامل ، ولا يخلق الإنسان ، المتحضر فى صورته المثلى .

تعال — غير مأمور — ننظر :

لقد خطا العلم اليوم خطوات واسعاً مداها ، فهل سعدة البشرية فى ظل هذا التقدم ، وهى تستهلك من ثماره ما يفوق الحصر ؟

إننا نرى البشرية كلها تنظر فى قلق ، إلى أطراف متعددة من الأرض ، تعانى من الدمار ، وتسام الخسف ، وتمنع النَّصَف ، وتجرب فيها مستحدثات العلم ، ومبتكراته فى التخريب ، والتقتيل : تُسلب بها حقوق وتُزْهَقُ بها أرواح ، وتُوأَدُ حريات ، ويطوى بها أمن ، وينشر بها خوف ، وتفشو بها منكرات ، وتوطأ كرامات ، وتدنس بها مقدسات . . . وهل يخفى على ذى عينين تلك المآسى الملتهبة التى كانت فى فيتنام ، والتى صبت عليها الويلات صباً ، وفى فلسطين ، التى تؤخذ على تخوُّف ، وفى أطراف آسيا عامة ، ومن قبل

ومن بعد ، فى أوربا ، وهل تاريخ ألمانيا النازية ببعيد ؟ ثم ماذا فعلت فرنسا فى أفريقيا عامة ، وفى الجزائر خاصة . . . وماذا اليوم فى أمريكا الجنوبية . . . ؟

وهل يخفى على الإحساس ذلك القلق الذى يعيش فيه العالم بأسره على خوف من حرب تهلك الحرث والنسل ، وتأتى على حضارة الدنيا ؟

هل يخفى على الناس هذا التناقض العجيب فى سلوك « متحضرى » العصر ، بعضهم إزاء بعض ؟

نبئونى ، بعلم ، كيف ساغ فى منطق الحضارة الحديثة ، أن تنهض أمة كبرى ، ويتقدم فيها الفكر الحر ، وتسمو « بالعلم » إلى طبقات الجواء ، وتستبق لا على الأرض ، ولكن على السماء ، ثم هى التى تستبقى من التأخر الفكرى ، التفرقة بين جنس وجنس ، وبين لون ولون ، ويجد هذا التخلف « الإنسانى » ، والفكرى ، والأخلاقى ، من رجالاتها من يجادل الكرامة عنه ! !

كيف ساغ فى منطق الحضارة الحديثة ، أن يمد بعض

الأمم « الراقية » المعونات الاقتصادية للشعوب النامية ، ثم هى هى التى تعوق تقدمها ، وتمنعها حقوقها « الإنسانية » والقانونية . .

كيف ساع أن تعين بيد ، وأن تعوق بأخرى ؟ !

هل هذه هى الحضارة المنشودة ؟

إنه ليطيب للحق ، والبحث الحر ، أن ننقل هنا رأى بعض رجالاتها ، ليكون الشاهد من أهلها : يقول « توينبى » : غاية الحياة ، أن نفهم وأن نُفهم وأن نحب القيم والمثل العليا ، وأن نعمل للإنسان والإنسانية . إن الحضارة قدمت لنا المزيد من الآلة والمصنع ، ومزيداً من الألم(1)

أهؤلاء الذين قدموا لنا الآلام باليد نفسها التى قدمت لنا الآلة والمصنع هم العباقرة حقاً ؟ أم هم العباقرة المتخلفون ؟ ! تقول الدكتورة « نوال السعداوى » :

(1) تقديم أنيس منصور فى مجلة « آخر ساعة » العدد الصادر فى ٢٣ / فبراير سنة ١٩٧٢ .

التحضر فى رإيى ليس ذكاء العقل وحده ، وإنما هو ذكاء العقل وذكاء الإحساس ، ولهذا أعتقد أن الرجل العبقرى عقلاً ، الذى لا يحس بآلام الآخرين ، إنسان متخلف [1]

وهنا يمكن أن يقال : إن الإنسان قد يصنع الحضارة ، بأحد معانيها ، ولكنه نفسه قد يكون غير حضارىٍّ ، بصورة الحضارة الكاملة. قد ينتج الإنسان ، بطاقاته الفكرية ، ما يسهم به فى بناء جانب الحضارة الفكرية الفلسفية ، أو العلمية ، أو القانونية ، ولكن طاقاته الأخرى ، الوجدانية ، أو السلوكية العملية ، ليست من النضوج بحيث تجعل منه متحضراً [2]

(١) ورقة نتيجة المعارف ٢ / ٣ / ٧٢م .

(٢) دكتور محمد البهى . الدين والحضارة . كتاب الهلال صـ ٧٠ .

فالحضارة التي تقدم الآلة والدمار ، والخبز والنار ، التي تفرق بين بني الإنسان بمقاييس ينكرها الفكر القويم ، والقلب السليم ــ ليست هي الحضارة حقاً ، والإنسان الذي يوجد الرخاء ثم يحتكره ، ويطلب الأمن ويزعج الآمنين ، ويكشف عن الميكروب ، ويقتل به ، ويعاهد على السلام ، ويشعل الحرب ، ويشيد المصنع ثم يدمره ــ إنسان أحمق ﴿ **ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة** . . ﴾ النحل : ٩٢

إنما الحضارة حقاً ، في مفهومها ، وفي تطبيقها ، بناء إنساني ، يرتفع فوق الأثرة ، وفوق البيئة الخاصة ، وفوق الشعب الذي صنعها ، وفوق الجيل الذي

عاصرها ، لتعاصر الأزمان كلها ، وتلائم الناس جميعهم ، فيما لهم من مثل عليا ، وقيم إنسانية !

والدين هو الذى يمنح الإنسان القدرة على أن يرفع هذا البناء ، ويعطيه القوة على الإيثار ، ويربطه بأبناء جنسه بروابط الإنسانية المتعاونة على البر ، المحبة للخير ، الآمرة بالمعروف وتفعله،والناهية عن المنكر ولا تأتيه **﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** الحجرات : ١٣ أرأيت هذا الخطاب الموجه إلى البشرية عامتها دون تخصيص **﴿ يأيها الناس ﴾** ثم أرأيت قول نبى الإسلام «إن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير »(١)

والدين هو الذى يصلح الوجدان ، وهو وحده القادر على صنع الإنسان على أمثل صورة ، وأحسن تقويم ، وهو الذى يمنحه الرقابة الذاتية التى تنبعث من

(١) جلاء الأفهام لابن القيم صـ ١٨٩ .

النفس فتحمى صاحبها من الانحراف واتباع الهوى .

والدين وحده هو الدافع الحسى الذى يبعث صاحبه إلى التضحية فى سبيل المصالح العامة ، من غير رئاء الناس ، أو طلب المثوبة عندهم .

والدين وحده هو القادر على خلق مجتمع فاضل ، تتساند أفراده ، وتتماسك لبناته .

والدين وحده هو القادر على خلق الإنسان الاجتماعى الكامل .

والدين وحده هو القادر على توحيد هدف الجماعة ، ورسم طريقها قويماً غير ذى عوج إلى غايتها .

والدين وحده هو القادر على خلق رأى عام فاضل ، تنبت فيه كل فضيلة ، وتقضى فيه كل ذميمة .

والدين وحده هو الذى يبعث الأمل القوى ، فينطلق صاحبه إلى البناء والعمل ، ويحرص على الإتقان والسمو .

والدين وحده هو القادر على الثبات أمام كل نزعة إلحادية ، تستهدف إحلال « المادة » وحدها محل القيم الروحية ، وتريد أن تحبس الإنسان فى زقاق ضيق من شعاب الحياة مظلم بالمطالب الحيوانية .

والدين باق ببقاء الإنسان ، موجود بوجود النفس ، ومن ثم كان صموده أما غِيَر المادة .

والإسلام على جهة الخصوص قدير على مواجهة كل المذاهب بفضل ما تضمنته مناهجه من إصلاح لجميع مشكلات الحياة ، فالأخذُ بمبادئه ، وتبيان حقائقه ، وأباطيل خصومه ، يضع الهدى فى مواجهة الضلال ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

الإسلام حياة ، فانفخوا من روحه فى أجسام الناس الهامدة ، تحيا وتسعد ! !

وإنما كان الدين هو الذى يعد الإنسانية لأن تبلغ بحضارتها هذا المرتقى الإنسانى ، ويحمل الإنسان فوق هذا الازدواج المتناقض بين فكره ووجدانه لأنه يعنى بعد

تحرير الفكر ، وتوسيع آفاق العلم ، بتوجيه السلوك العملى ، وتكوين الإرادة الخُلُقية الإنسانية ، وسيادة الطابع الإنسانى العام ، عن طريق الإيمان ، الذى هو ترجمة عملية لعقائده . ويكفيك من مبادىء هذه الترجمة العملية المؤمنة ، قول نبى الإسلام « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وقوله جواباً عن سؤال من سأله : أى الإسلام خير ؟ فقال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف « صحيح البخارى كتاب الإيمان »

ومن هنا تبدأ مسيرتنا ، ونبدأ بناء دولتنا الحديثة من العلم والإيمان معاً. من العلم ، نلحق ركب المتقدمين فيه ، ونستبق .

من العلم نصنع الأمن والرخاء . .

ومن العلم نطلع على سنن الله الكونية ، ونجنى ثمرات تسـخيره إياها لنا ، ونزيد يقيننا بالله عن طريقها ، ونتخذها ، كما اتخذها الله خالقها ، من أدلة وجوده

وصفاته ، فنحن أولى بكل ذلك من غيرنا . أولى به من جهة كتابنا المقدس ، ومن جهة تاريخنا العلمى .

ومن الإيمان ننشر لواء « الإنسانية » المتحضرة فكراً ، ووجداناً . الواعية عقلاً وقلباً ، الراقية علماً وسلوكاً ، المؤمنة بكرامة الإنسان . التى تحب لغيرها ما تحب لنفسها . والتى تشعر بما يشعر به الآخرون ، نؤمن بالسلام ونعمل له ، ونعمل للرخاء ، ولا نستأثر به ونعطى ولا نستكثر . ونعرف حق الفرد ، ولا نفارق الجماعة ، ونرد البشرية إلى وحدة الإيمان ، عن فرقة الهوى ، ونمد المثل بالعمل ، والفكر بالتطبيق ، ونقول ما نفعل ، ونفعل ما نقول . أليس إيماننا عملاً ؟ ! وفى هذه « المعادلة » العادلة بين العقل والوجدان ، وبين العلم والإيمان تكمن خصيصة من أهم خصائص العربى المسلم وحضارته ، ويتحدد بها واجبه ، فى هذا العصر ، وهدفه

* * *

الفصل الثالث

واجبنا فى هذا العصر ، ورسالتنا فيه

تبين لنا أن حضارة العصر حضارة الآلة والصناعة القائمة على المنطق التجريبى ، والاستقرائى وهذه إحدى سمتين تميزان المجتمع الحديث .

وثانيتهما : هى النزعات الفلسفية والتوجيه الفكرى المتعارض والذى يتنازع البقاء ، ويتجاذب البشرية ، فقسم أهل الأرض إلى قسمين ، يعيشون فى « حرب باردة » يخشى نتائجها كثير من المفكرين .

ولا شك أن هذا التمزق بين المادة والمعنى ، ثم هذا التمزق بين المعانى الفكرية الموجهة ، هذا التناحر بين القيم

التى يصطنعها الإنسان ــ ذلك التمزق ، هو الذى مزق سلوك الإنسان ، وشتت هواه ، وعاد ﴿ **كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران** ﴾

فمن نقائض عصرنا ــ بشهادة رجال الفكر أجمعين ــ أنه عصر أدى بشبابه إلى حالة من التمزق والتفسخ والضياع ، وضلال الهدف والحيرة ، وفقدان الهدف الجامع ، والعقيدة الرابطة . . . لماذا ؟ لأن القيم التى ينطوى عليها هذا العصر ، ليست كلها على اتساق بعضها مع بعض ، فترى هذه القيمة المعينة ، تغرى الناس بالتزام العقل الصارم فى دنيا العلوم ، بينما تغريهم تلك « القيمة » الأخرى ، بالخروج والعصيان ، وتفضيل الغريزة والوجدان ، على العقل ومنطقه ، كما هو مشاهد فى كثير من نتاج الأدب والفن ، وفى تحرر الشباب[1] . وأصبح الغربى المعاصر مسرحاً أليماً لكثير من تناقضات حادة ، ومشكلات أخلاقية عسيرة هيهات لأى مصلح اجتماعى أن يجد لها حلاً ، لقد تزايدت ،

(١) دكتور زكى نجيب محمود مجلة العربى عدد ١٥٨ .

قدرة الإنسان الغربى المعاصر على التحكم فى بيئته المادية ، ولكنه فى الوقت نفسه ، لم ينجح ، حتى الآن فى الاهتداء إلى الطرق الفعّالة ، من أجل التحكم فى السلوك البشرى[1] .

لقد حذر القرآن الكريم عاقبة هذا التمزق ، وحضنا على النظر فى مصير الذين أفادوا من العلم ، كثرة وقوة وعمارة ، فغرهم ذلك ، فجحدوا الإيمان ، وكفروا بالله ، فكان عاقبتهم خسرا ، وأحلوا أنفسهم وقومهم دار البوار ﴿ **أفلم يسروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة ، وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ، فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون** ﴾ غافر ٨٢ — ٨٥

(١) دكتور زكريا إبراهيم . مجلة العربى عدد ١٠٤ .

وقد شرح القرآن هذه السنة ، وبين نتائجها فى أسلوب قصصى رائع حين ذكر قصة « قارون » فى سورة القصص ، وبين كيف آتاه الله « بالعلم » من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، فلما ذكره المؤمنون بربه ، بطر ، وقال إنما أوتيته على « علم » عندى ، فحقت عليه سنة الله فخسف به وبداره الأرض . . .

ومن هذه السنة الإلهية فى العباد ، ومن هذا المنهج القرآنى . تتضح واجباتنا فى هذا العصر ، ورسالتنا إليه .

وليس من اليسير فى هذه الوجيزة ، أن نبسط ما يجب علينا فى بناء أمتنا ، لمسايرة عصرنا ، والاضطلاع برسالتنا ، وحسبنا فى ذلك ، إشارة البنان ، عوضاً عن إحاطة الباع .

وأول واجباتنا فى هذا الصدد ، أن ندرك أننا قد تخلفنا عن عصرنا فى المجال العلمى التجريبى ، وتخلفنا عن مقوماتنا الإسلامية العربية ، التى هى صمام الأمان

للتقدم العلمى .

وعلينا أن نجدّ فكرنا الإسلامى ، لندرك حقيقة التوجيه القرآنى ، والنبوى ، الذى لفت أنظارنا إلى تسخير المادة ، ورفع أبصارنا وبصائرنا إلى الحقيقة التى هى مصدر الحق والخير والجمال .

ولست أعنى من تجديد فكرنا ، أن نتحول إلى ناقل عن الفكر الغربى ، مترجم له ، يحسب ذلك الخير كله ، أو أن تنحصر همتنا لهذا التجديد فى إعادة طبع « ذخائر العرب » و إحياء تراثهم ، بالتأنق فى إخراجه !

إنما الذى أعنى ، أن نقف من عصرنا ، وقفة العربى الماضى ، من عصره ، تلك الوقفة التى حرك فيها عقله ، نحو الاستنباط والاستقراء وحركت وجدانه نحو الخير والحق . تلك « الحركة » التى حاربت الجمود الفكرى ، فاتسعت عقولهم لكل جديد ، وتقبلت كل منقول ، وعمل العربى المسلم فيه بعقله المتحرك ، فازدهر وأثمر ، والتى هذبت الوجدان ، وأعلت

الطباع ، فوسع العالم بخيره وخلقه . . .

ولا ينكر مخلص واع ، مقدار تخلفنا عن منجزات العصر ، ومقدار ركود فكرنا الإسلامى ، ووقوفنا من الدين ، عند حد الصور ، ومجرد التنادى بالدعوات ، من غير أن نحاول مخلصين جادين ، أن نجعله فى حياتنا « المحرك » القوى الذى يزيل حجب الركود ، ويفتح مغاليق الكون .

« إن النظر الموضوعى المنصف للإنسان المصرى والعربى يكشف عن أن مجموعة من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية ، التى أحاطت به ، قد رسّبت فيه ، سلبيات ، وعناصر ضعف ، من الأمانة تقريرها ، دون أن نعبأ بصيحات الداعين إلى وضع الرءوس فى الرمال ، والتغنى بقصائد الفخر ، فى عالم يحتاج إلى الفعل أكثر من احتياجه إلى الصيحات والشعارات »[1] .

---

(١) دكتور كمال أبو المجد . أهرام ١٥ / ٣ / ٧٢ .

ولا يمارى عارف بتاريخ الإسلام ، والمسلمين ، أن الإسلام كان الروح القوى ، الذى جعلهم « إيجابيين » مع عصرهم ، فأقاموا تلك الحضارة التى غطت وجه الأرض ، وأشرق لها وجه الحياة ، وقد كان مجدوراً مظلماً « فالإسلام حضارة وكيان أخلاق ، له القدرة على أن يسود العالم ، وأنه عالج جميع جوانب الحياة ، وهو أكثر الديانات إثراء وعمومية ، ومن الأمور المنطقية أن نطبق أحكام الإسلام على كل شيء نقوم به »[1]

فعلينا أن نعبر مكاننا ، لنأخذ من الدنيا كلها ، كل جديد مفيد .

وعلينا أن نعبر زماننا ، لنأخذ من أسلافنا دستور الاعتدال فى الفكر والعمل ، والمثل والواقع ، والعقل والدين ، والدنيا والآخرة والفرد والجماعة ، وثقافة الروح وحضارة العيش ، أليس من مأثوراتنا الخالدة « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك

(١) الرئيس الليبى معمر القذافى أهرام ٢٧ / ٣ / ٧٢ .

كأنك تموت غدا » ؟ !

وعلينا ، سواءعبرنا المكان لنأخذ من حضارة الصناعة ، أم عبرنا الزمان ، لنأخذ من تاريخ الإسلام والأسلاف ، علينا أن نستوحى كل ذلك ، لنبتكر كل جديد مفيد ، ولنحقق التعادل بين « مادية » العصر ، وثقافة الروح .

٣ ــ وعلينا أن ننتقل من ثقافة الألفاظ ، إلى ثقافة الأفعال ومن مِلك اللفظ ، إلى مِلك « العمل » وملك « الشيء » ، فقد عشنا زمناً طويلاً فى بحار من الألفاظ ، والشعارات ، نحل بها كل معضل ، ونرقّ بها عن كل مجهد ، ونلهى بها كل متطلع ، ونتوارى فى ثنايا ظلالها الشاعرة ، من مرارة الواقع الأليم ، ونستغنى بتراثها من فقرنا فى « أشياء » الحياة . عشنا كذلك وكتابنا يقول ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ الصف : ٢ ــ ٣ وكتابنا هو الذى وعد بالحياة الطيبة فى الدنيا لمن عمل

الصالح وهو مؤمن : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ النحل : ٩٧ وكتابنا هو الذى أخبر أن هداية الله فى الدنيا ، وجزاءه بالحسنى للمؤمنين الذين عملوا الصالحات ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم** ﴾ يونس : ٩ .

وعلينا فى هذا الانتقال من الاكتفاء بالألفاظ إلى الأعمال ، أن نبلغ بأعمالنا أقصى حد مستطاع للكمال ، فذلك هو هدفنا الذى رسمه كتابنا : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ الملك – ٢ .

وعلينا فى طريق هذا الإحسان ، أن نقيم من ضمائرنا رقابة ، باعثها الإيمان بالله ، ومن ساستنا أمناء على هذه الغاية ، هديهم فى ذلك هدى رسول الله . ومن الأمة رقباء عليها ، باعثهم فى ذلك وظيفة المجتمع الإسلامى أفراداً وجماعات ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم**

ورسولة والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ التوبة : ١٠٥ ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾ ٣ ــ ١١٠

فمن الواجب على الأمة أن تقوم بهذه الوظيفة لتحقق خيريتها فى نفسها ، وتحقق الخير « للناس»

ومن حقها أن تمتلك هذه الوظيفة ، وظيفة الكلمة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ، لا تتركها بضعف ، ولا يسلبها معتد بقوة .

والأمة ، بممارسة هذا الواجب ، واستمساكها به ، تحقق خيريتها فى عقيدتها ، فلا تجعل لأحد كلمة فوق كلمة الله . وتحمى سياستها ، فلا يستبد بها مستبد يسكت الأفواه ، وتحمى عملها من النقص ، ليبلغ الإحسان ، وتحمى الكلمة من أن تكون لغير معروف ، أو تأمر بمنكر . وهى بهذا لا تفشو فيها الدعاية المضلة ، والإذاعة الموظفة ، والصحافة التى

تجهل الخير الصادق ، والتوجيه المرشد ، وتتم للأمة بذلك كلمة الصدق ، والعدل .

والأمة باستمساكها بهذا الحق ، وقيامها بهذا الواجب تحقق الخير للناس ، وتدفع الشر عنهم ، وهذا هو المدار الذى اتخذه الفكر الإسلامى منذ منحه القرآن الدفعة الأولى ، وألزمه هذه الوظيفة : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ ٣ — ١٠٤

وفى كل الظروف الجليل منها واليسير يعتبر المسلم مكلفاً بهذه الدعوة والقيام بهذه الرسالة ، يقول نبى الإسلام : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله ﴾ « وعند تقسيم التركة بعد وفاة صاحبها ، وهذا ظرف اجتماعى عادى يقول القرآن ﴿ **وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه** . . . ﴾ النساء : ٨ . وهذا الحكم يجب أن يأخذ مكانه فى كل تشريع

مدنى تقدمى . ولكن القرآن يطالب بأكثر من ذلك ، إنه لا يريد مجتمعاً يوزع المال فحسب . إنما ينبغى على المجتمع الإسلامى فضلاً عن توزيعه المال — أن يوزع فى الوقت نفسه « الخير » ، والآية السابقة ، التى شطرناها عن قصد ، تظهر لنا ما يمكن أن تشترك به مع أى قانون وضعى ، وتنتهى بحكم آخر ﴿ **وقولوا لهم قولاً معروفا** ﴾ **وهكذا اكتملت الآية : أنفقوا من أموالكم ، ولكن أضيفوا إلى هذا الإنفاق فكرةأوكلمة ، أو إشارة تترجم شعوركم ، ومفهومكم ، وفكرتكم عن « الخير » هذه الإضافة ذات الصبغة الروحية الخالصة ، يستحيل تصورها فى أى تشريع مدنى آخر . إنها تعطى للرابطة الاجتماعية النابعة من الفكر الإسلامى طابعاً خاصاً بحيث يصبح ما يطلق عليه « التناقض بين طبقات الشعب » ظاهرة غريبة عن المجتمع الإسلامى**[1]

(١) مشكلة الأفكار صـ ٢٢ .

تلك وظيفة الأمة الإسلامية التى قامت بها فى ماضيها ، والتى يجب أن تقوم بها فى حاضرها ، لتؤدى رسالتها نحو نفسها ، ونحو العالم .

٤ ــ والتزامنا بهذه الفريضة القرانية ، وقيامنا بهذه الرسالة الإسلامية يأخذ بأيدينا وأيدى الناس ، وضمائرنا وضمائرهم ، وسلوكنا وسلوكهم ــ إلى الأخذ بأخلاق الإسلام الشخصية التى تدفع المسلم إلى الإحسان ، واستباق الخيرات ﴿ **ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات** ﴾ ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ البقرة : ١٤٨ و ١٩٥ والتى تدفعه إلى البدء بنفسه حتى لا يأمر بالبر وينساها ، بل يبدأ بنفسه فيزكيها ، ويصونها من التدسية والشهوات ، وبعقله فيزكيه بالمعرفة ، ويصونه من ضلال الشبهات .

وتدفعه إلى الأخذ بأخلاق الإسلام العامة التى هى من قواعد بناء الأمة ، وسلامتها ، من العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وترك الفحشاء والمنكر والبغى ،

وتوجيهات القرآن تدل على أهمية هذه الركائز ، لا سيما ركيزة العدل ، فى قوام الحياة الخاصة والعامة ، وتدل على آكدية العدل بخصوصه ، فى دعم الكيان القومى للشعوب ، وانتظام سياستها وسيادتها . والقرآن على عادته ، يمزج هذه القاعدة الدنيوية ، بتوثيق صلتهم بالله ، تذكرهم بماله من سلطان على عباده ، وهو بهذا التوجيه ، المزدوج يجمع لنا بين الدنيا والآخرة ، بين حياتنا ومصيرنا ، ويمزج لنا بين المادة والروح ، وانظر إليه يخاطب « المؤمنين » بهذه القاعدة ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ المائدة : ٨

وانظر إليه يبادر إلى تفهيم « المؤمنين » أن ذلك واجب عليهم فى كل حال ، ومع كل إنسان ، ولو فرقتنا وإياه سخيمة العداوة

ولعمرى إن هذه الفضيلة الأخلاقية الإسلامية التى

تهذب السياسة بالأخلاق ، وتحمى العلاقات الإنسانية والدولية من الظلم بالعدل — لَمِنْ خير ما تُهديه الأمة الإسلامية للعالم المتظالم فى عصرنا ، هذا الذى قامت سياسته على « المنفعة » فحرمته الأمن ، وسلبته الاستقرار ، وعبّدته للمادة ، وهو سيدها ، وحالت بينه وبين السياسة الأخلاقية الإسلامية التى هى قضية العقل ، وحقيقة الإنسان المدنى بالطبع ، فحرم نفسه التعاون على البر ، والإصلاح بين الناس ، والإحسان إليهم ، وأبدلته بعد ذلك ، سخرية بالغير ، وتنابزاً بالألقاب ، وتفريقاً باللون والجنس ، وتفاضلاً بغيرالتقوى ، وألهاه التكاثر ، حتى يوشك أن يفنى وفسدت بذلك الأخلاق الاجتماعية ، وتعاملت المجتمعات بمقاييس متعددة متناقضة ، يهدم بعضها بعضا ، ويلطم كفها وجهها ، وظنوا ذلك من الكياسة ، التى تقتضيها السياسة ، ويحفظ بها نظام الملك والرياسة ، وما كان إلا فتنة لهم ، وأضاعوا بها دينهم وأوشكوا أن يضيعوا بها دنياهم .

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا مانرقّع

وهذا ينقلنا إلى واجب آخر ، نحو ديننا ، ألا وهو وجوب أخذ الإسلام جملة فلا يكون حالنا أن نؤمن ببعض الكتاب ، ونكفر ببعض ، وأن نأخذه عبادة ، ونتركه معاملة ، نعمل به فى « الأحوال الشخصية » ونُشرِّع غيره فى غيرها .

بيد أنه من الإسلام أن نعلّم أن الإسلام هو ما تركه لنا رسول ﷺ من كتاب وسنة . أما ما عدا ذلك من أقوال العلماء ، وشروحهم ، واجتهاداتهم ، فليست هى الدين وليس لها قداسة نصوصه ، ولا حرمة أوامره ونواهيه ، مهما كان سمو منزلة قائلها فى العلم والفهم ، فلنا أن ننظر فى أقوالهم ، ونعرف أسانيدها من الكتاب والسنة ، وأن ننظر فيما جد لنا من مسائل على ضوء نصوص الشريعة : الكتاب والسنة ، وعلى ضوء مقاصدها ، وقواعدها العامة .

أما بعـد :

فإننا عندما نأخذ بهذا المنهج الجامع بين العلم والإيمان ، فإننا ننزع بعرق أصيل إلى آبائنا الأقدمين ، وأسلافنا الذين عن طريقهم عرفت الدنيا رسالات السماء .

ونحن بذلك نبنى على أصل ، ونتشيء على أساس ، ونحفظ لشخصيتنا أصالتها ، ونجدد لها شبابها .

ونحن بهذا المنهج نحمل للعالم رسالة التوفيق بين « العلوم والإنسانيات » ونحقق وحدة المعرفة البشرية ، التى هى بالضرورة ، حاجة المجتمع الإنسانى المتكامل ، الخلو من مشكلات الإنسان المعاصر ، السياسية ، والاجتماعية ، والأخلاقية ، تلكم المشكلات التى يتعذر على أى نظام اقتصادى صرف أن يتكفل بإزالتها لأنه من المؤكد أن معيار « الصحة الاجتماعية » فى أى مجتمع إنما

يتوقف أولاً ، وبالذات على مدى تكامله الاجتماعى ، ودرجة اتساق حضارته ، وهذا ما ينقص عالمنا المعاصر ، وهذا هو ما يحمله منهج الجمع بين « العلم والإيمان »

إن العلم والإيمان طريقان إلى حقيقة واحدة ، ومن ثم ، وجب أن يتعاونا ، وأن نبنى أحدهما على الآخر ، فالعلم يدعو إلى الإيمان ، والإيمان يدعوا إلى العلم ، ولا يوجد بينهما تنافر ، بل بينهما تضافر ، فإذا وهمنا وجود تنافر بين العلم والإيمان ، فليبحث الباحثون عن علته فى أنفسهم ، وسوف يجدون العلة من زيغ أهوائهم ، أو من ضلال فكرهم ، وسوف يظل العلم الرشيد ، والإيمان الصحيح من بعد ذلك ، ومن قبله ، صديقين صدوقين ، وخليلين مؤتلفين ، وصاحبان[1] على السراء والضراء .

وماذا فى أخذنا بالصاحبين معاً ، والتوفيق بينهما ، فى

(١) نقصد الرفع .

عصر يغرى بينهما العداوة والبغضاء . ونحن خلف قوم سبقوا الدنيا بمحاولة التوفيق بين « الدين والفلسفة » وكانت هذه من كبريات مشكلات عصرهم ، وسواء علينا أخطوا فى هذه المحاولـــة إلى مدى بعيـــد أم قريب ، أم وفقوا أم لم يوفقوا ، إلا أنهم على أى احتمال ، عاصروا دهرهم ، وهذا هو بعينه واجبنا : أن نعاصر دهرنا « بالعلم » وأن نهديه « بالقيم » فنحفظ بهذا أصالتنا ، ونحمى بذلك حقيقتنا ، ونحيى حاضرنا ، ونحمل بهما معاً رسالة ما أشد حاجة العصر إليها ، كما حمل أسلاف لنا إلى عصرهم رسالتهم ، عصاميين ، لا عظاميين ، ولامتكلين على سؤدد الآباء ، ولا كسلين عن مسايرة الأنداد .

لسنا وإن كرمت أوائلنا
يوماً على الآباء نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا
نبنى ونفعل مثلما فعلوا

والله المستعان ، وعليه التكلان .

عبد المجيد حامد صبح

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٥٦٨ / ٨٤
الترقيم الدولى ٢ — ٦ — ١٤٢٠ — ٩٧٧